اخترنا لك
٣٢
القومية
العربية

الرئيس جمال عبد الناصر

obeikandl.com

القومية العربية والاستعمار

للرئيس جمال عبد الناصر

إن مصر حين نادت بالقومية العربية لم تكن تنادى بذلك عن عاطفة أو مآرب سياسية ، ولكنها كانت تنادى بها عن إيمان عميق بأن قوتنا جميعاً تنحصر فى هذه القومية العربية .

إن مصر تشعر بأن العرب حينما اجتمعوا استطاعوا أن ينتصروا على أقوى القوى فى العالم ؛ وحينما تفرقوا كانوا لقمة سائغة للطامعين والفاتحين .

إن هدفنا من القومية العربية مصلحة مشتركة ؛ مصلحة متبادلة حماية لنا ، وكلنا نعمل فى سبيلها ضد الطامعين والغاصبين والمستعمرين .

هذه هى القومية العربية التى يحاربونها اليوم .

هذه هى القومية العربية التى يعملون اليوم بكل قوة وبكل وسيلة من الوسائل ليقضوا عليها ويطفئوا شعلتها

ولكن القومية العربية قد انطلقت ، وهى لا تتمثل فى شخص أو أشخاص ولكنها تتمثل فى الشعب العربى جميعاً .

إن القومية العربية قد أخذت اليوم تنمو من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى رغم أنف الاستعمار ورغم أنف المستعمرين .

وهى القومية العربية التى استطاعت أن تحمينا حينما تآمر علينا الاستعمار .

الاستعمار الذى حينما جند جنوده ليواجه مصر كان يعتقد أنه سيواجه شعباً منعزلا ولكنه فوجئ بالقومية العربية تتحفز وتنطلق وتهدد وتعمل لتقضى عليه وتقضى على مصالحه .

« من خطاب سيادته فى وفد الإخوة السوريين »

الأمة العربية قبل الاستعمار

بقلم

محمد عطا

(١)

لم تكن الأمة العربية حديث التاريخ حتى خرج منها محمد عليه السلام بدعوته ؛ هذه الدعوة التى لم تكن مقصورة على أمة العرب فحسب بل تجاوزتها إلى الأمم جميعاً (وما أرسلناك إلا كافة للناس) .

وقد أراد الله أن تكون شبه الجزيرة العربية منبثق الدين الجديد — والنبع الذى يتدفق منه ؛ لم ؟ . . لأن هذه البقعة قريبة من البقع الطاهرة التى خرج منها موسى ثم عيسى من بعده ؛ من الشرق مهد الأديان ، وموطن الرسالات ومصدر الوحى والإلهام .

ولأن البلاد الأخرى كانت ترزح تحت نير من الاضطراب والبغى والفساد .

ولأن هذا المكان بالذات فيه تطلع إلى المعرفة وإلى التحرر من دين الوثن الضيق الأفق .

ولأن هذه الجماعات القبلية كانت تتشوف إلى الخروج من الحياة القبلية إلى حياة الجماعة الواحدة . . إلى الأمة — ولن تتمكن من هذه الوحدة إلا إذا اجتمعت على كلمة سواء ، ولن يهيئ لها هذه الكلمة إلا رجل منها ؛ رجل يحررها من عبادة الوثن إلى عبادة الله الحقة .

وقد كان هذا الرجل هو محمد بن عبد الله .

والرسالة التى طلع على قومه بها وكانت للناس كافة ؛ رسالة تحمل فى طياتها الخلود لأنها جمعت بين الدين والدنيا ؛ رسالة لصالح المجموع لا لصالح قبيلة بعينها أو أمة بذاتها ؛ رسالة فيها مرونة وفيها محبة وفيها سلام .

رسالة يجتمع عليها الناس ويجدون فيها المخرج من آلامهم ومتاعبهم .

رسالة لا تجنح إلى العنف ولا تميل إلى اللين بل جمعت بين بين .

رسالة آمن بها الموالى قبل أن آمن العرب .

رسالة تصلح لكل بيئة ولكل زمان بما طبعت عليه من سعة وتحرر ومرونة .

رسالة من يؤمن بها لا يتخلى عنها مهما يفتن أو يقهر أو يجاهد عليها .

رسالة تجمع بين معتنقيها ولا تفرق بينهم سواء فى الحرب أو فى السلام ، فى السراء أو الضراء .

وهذا هو السر فى أن الأحداث الجسام التى مرت بالعالم الإسلامى والحروب المتصلة بين الإسلام وغيره من الأديان لم تنل من هذا العالم شيئاً بل على العكس قد قوت منه وزادته استمساكاً بعقيدته .

هذه حقيقة كبرى نهديها اليوم إلى عالمنا الغربى الذى لم يفهم بعد

مبلغ عقيدة الشعوب الإسلامية ومدى تواصلها على الرغم من المحاولات المتصلة الدائبة لتقطيع أوصاله ، والإتيان على معالمه وتقويض بنيانه .

وهذه الحقيقة الكبرى لم نرسلها إرسالا ولكنها حقيقة التاريخ الذى يوافينا بها ، والتاريخ أصدق لسان ، وأقوى بيان .

(٢)

لقد اصطدم الإسلام بالصليبية اصطداماً سافراً فى أخريات القرن الحادى عشر (١٠٩٩ م) — وانتصرت الصليبية حتى سنة ١١٤٤ م حيث استطاع عماد الدين زنكى قهر الصليبيين وردهم عن أمارة الرها أقوى معاقلهم فسنة ١١٧٤ م حين ولى أمر مصر البطل الإسلامى صلاح الدين الأيوبى الذى أخذ على عاتقه أن يعيد للإسلام قوته وأن يدفع هذه الجحافل الغازية وأن يردها إلى ديارها وليبقى للمسلمين عزهم ومجدهم ؛ وشاء أن يبدأ معركة من أشهر معارك التاريخ هى معركة « حطين » فى الثالث من شهر يوليو سنة ١١٨٧ م وظلت رحاها دائرة يومين انتهت بانتصار صلاح الدين وكانت معركة فاصلة بين الإسلام والصليبية انهارت الصليبية بعدها فى الشرق العربى وأصبح خالصاً لأبنائه .

هذه الحروب الصليبية قد خلفت آثاراً عميقة فى نفوس الشرقيين والغربيين والتى تجددت فيما بعد بصورة أو بأخرى .

والدارس لتاريخ هذه الحروب يرى مبلغ تعصب هؤلاء الصليبيين وتدميرهم للبلاد التي فتحوها وإذلالهم لأبناء هذه البلاد والعمل على تحطيم معنوياتهم والتنكيل بالألوف المؤلفة منهم فى غير شفقة أو رحمة .

وفى الوقت ذاته يرى مبلغ تسامح المسلمين وعفوهم حتى أصبح هذا التسامح مدار قصص يروى ، وحديث يؤثر .

ولقد قدمت هذا الحديث لأذكر — فإن الذكرى تنفع المؤمنين — بأن الأمة العربية إذا غلبت على أمرها سنوات فإنها لا تلبث حتى تستجمع قواها وتسترد صلابتها ولو اجتمع عليها أهل الأرض قاطبة .

فالصليبيون فى زحفهم على الشام كانوا قرابة مائة وعشرين ألفاً تمدهم بالعتاد والمال دول أوربا الغربية والشرقية ، واستطاع صلاح الدين بالقوات المصرية والشامية أن يقهر هذه الجموع .

استطاع صلاح الدين ذلك معتمداً على قواته هو أى أنه دافع عن هذه المنطقة دفاعاً منبثقاً منها لا خارجاً عنها .

واعتمد صلاح الدين على القوة الروحية الكامنة فى الشعب العربى المناضل .

وهذه حقيقة أخرى ينبغى أن يتفهمها كل عربى وكل غربى .

* * *

وحدث هذا فيما بعد حين أغارت جموع التتر بقيادة القائد كتبغا (Kitbuqha) على الشام ونهض لملاقاتها القائد بيبرس بالقوات المصرية والشامية أيضاً فاستطاع بعد قتال مر أن يهزم القوات المغيرة فى المعركة

الفاصلة معركة عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م وقد كان الانتصار فى هذه المعركة على جحافل التتر انتصاراً رائعاً أبقى على التراث الإسلامى ووحد بين الدولتين العربيتين الكبيرتين مدة قرنين ونصف من الزمان .

إن هذه الجموع التترية التى هزمت قوات الخلافة العباسية وأسقطت فى قبضتها مدينة بغداد عاصمة العباسيين قد تحطمت على صخرة المقاومة المصرية والشامية وارتدت على أعقابها بعد أن وصمت بعار الهزيمة والاندحار .

ولم يعتمد فى هذا الدفاع بيبرس أو قطز على قوات خارجية بل اعتمدا على قوات المنطقة ذاتها .

(٣)

قد يرى بعض الأغرار أن الاتفاقات العسكرية بين المملكة العربية السعودية والأردن والشام ومصر واليمن من وحى هذا العصر ؛ وأن هذه الاتفاقات غير كافية للدفاع عن المنطقة ، وأن الأحرى أن تعتمد على أحلاف خارجية أو قوى عسكرية أجنبية ولكن صفحات التاريخ تروى غير هذا الذى يراه بعضهم .

فمنذ الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وهذه الدول تتبع سياسة واحدة ويسيرها هدف واحد فقد ظلت كذلك فى عهد عثمان وعلى

وكذلك فى عهد الدولة الأموية العربية الصميمة وكذلك فى عهد الخلافة العباسية أو الدولة الإسلامية الموحدة فما أن انقسمت هذه الدولة إلى دويلات بفصل العصبية القبلية التى اشتدت حين ضعفت الحكومة المركزية فى بغداد واستخدم الخلفاء العناصر الأجنبية الفارسية والتركية التى زادت أطماعها بعد استئثارها بالسلطة وفعلت القوميات فعلها فى الانفصال والاستقلال بنفسها حتى تيقظت هذه الشعوب ذات الحضارات العريقة ولكنها مع هذا التيقظ كانت تحكم حكماً واحداً ؛ كانت كذلك فى العهد الطولونى وفى العصر الفاطمى والأيوبى وفى عهد المماليك حتى الفتح العثمانى .

وفى خلال هذه الفترة كانت هذه الدول تنتهج سياسة موحدة ولم تنفصل هذا الانفصال الظاهرى إلا فى خلال الاستعمار الغربى .

إن مصر فى كل عصورها كانت تؤمن دائماً حدودها ضد الغارات المغولية أو التركية أو الهجرات المختلفة من آسيا وأوربا باتحادها مع الشام ووقوفهما أمام الخطر الداهم يناضلان عن كيانهما وكيان الأمة العربية التى أخذت تنوشها السهام من كل مكان وبخاصة فى أيام ضعفها وانحلالها .

* * *

وكانت هذه الدول تنحو نحواً واحداً ؛ لأن العنصر الغالب فيها هو العنصر العربى فالقبائل العربية كانت غالبة فى الشام وفى المملكة

السعودية وفى الأردن قبل الفتح العربى ، أما فى مصر فقد كانت هناك هجرات متتابعة إلى مصر فما أن كان الفتح الإسلامى أو انتشار الاسلام فى مصر حتى امتزج العرب الوافدون بسكان مصر بالمصاهرة والاختلاط حتى غلب الجنس العربى وأصبحت له السيطرة والنفوذ .

وهناك أمر آخر وحد بين هذه الدول إلى جانب العقيدة هو وقوعها فى فلك واحد فالجوار له أثره البعيد فى التقريب والارتباط الوثيق ؛ وتعرضها جميعاً لأخطار الغزو والفتح مما يدعوها — وهى المتجاورة — إلى أن تنهض معاً لمجاهدة هذه الغزوات ودفع المد الزاخر إلى ما وراء حدودها .

إن على ثرى أرض الشام (سوريا — لبنان — فلسطين) دماء مصرية غالية أريقت وهى تدافع عن القضية المشتركة وعن الأهداف العربية الموحدة .

وهذه الدماء عزيزة علينا نذكرها ونذكر ثراها ونحيى أرضها الزكية الطاهرة .

هذه الذكرى تقرب بين القلوب وتتسامى بالنفوس وتتعالى على الخلافات العصبية والفوارق المذهبية .

ويحكم هذا الرباط الثقافة الموحدة ؛ فعلماء مصر وأدباؤها وأعلامها وكتابها وكتبها وصحفها كلها ذات أثر بعيد الغور فى توثيق الصلات ، فمحمد عبده قد ظل أمداً يدرس فى معاهد الشام ومساجدها ، والأساتذة المصريون يروحون ويغدون بين حين وآخر ، والكتب المصرية وكذلك الصحف تزحم المكتبات ودور النشر هناك .

وبالتالى تقوم الصحف الشامية والكتب والأساتذة بدور خطير فى

نشر الأفكار والآراء وتبادلها بين أبناء قطرين تجمعهما وشائج القربى والمودة .

إن الثقافة الموحدة ركن من أركان الألفة والأخوة ووحدة الهدف والغاية .

(٤)

ولننتقل الآن إلى الأمة العربية بعد أن وهنت قوى « الرجل المريض » لنرى المحاولات التى بذلت لتتوحد ، والمؤامرة الاستعمارية التى حيكت ودبرت لتفرق بينها وتباعد بين أبنائها .

لقد أخذت الدول الأوربية تقاوم مقاومة عنيفة القوات التركية فى أوربا الشرقية وتدفعها دفعاً إلى الوراء . . إلى محيطها الضيق فى آسيا .

وبدأت هذه الدول وبخاصة الكبرى منها تعمل على تقطيع أوصال هذه الإمبراطورية الإسلامية ؛ فإنجلترا تحاول أن تؤمن طريقها إلى الهند وأن تستولى على قناة السويس ، وروسيا تعمل على أن تمزق تركيا كل ممزق حتى تجعل لها منفذاً إلى الشرق الأوسط والبحر المتوسط ، وفرنسا تنافس كلا منهما فى الاستيلاء على مصر والشام كما فعلت فى عهد نابليون وقيادته للحملة الفرنسية على مصر .

رأت تركيا أنها أصبحت كسفينة فى بحر هائج تنوشها الريح العاصفة من كل جانب والموج يتربص بها فى كل لحظة فلم تجد بداً من أن

تستعين بولاتها لدرء هذه الأخطار عنها فاستعانت بواليها محمد على فى حرب المورة حيث صادفت القوات المصرية نجاحاً فى احتلال كريت ثم إخضاع المدن اليونانية ولما رأت إنجلترا أن نجم القوات المصرية فى صعود تدخلت بأسطولها الضخم وعملت إلى تحطيم الأسطول المصرى كما هو معروف فى معركة (نفارين) .

ولكن مصر لم تهن عزيمتها فعند ما اجتمعت كلمة الدول الكبرى على استقلال اليونان وعادت قواتها إلى أرض الوطن أخذت تتطلع إلى وحدة عربية شاملة وبخاصة بعد أن شهدت ضعف تركيا وتزعزع مكانتها ولو أن تركيا فى ذلك الوقت ساعدت مصر على تكوين هذه الوحدة لما استطاع الاستعمار — على طغيانه — أن ينال من القومية العربية منالا ، إن مصيره كان مصير الحملات الصليبية فى الشام والإنجليزية فى رشيد والفرنسية فى مصر .

لقد تمكنت القوات المصرية من أن تهزم القوات التركية وأن تقف على أبواب القسطنطينية ولكن الدول الكبرى وبخاصة إنجلترا قد وقفت لها بالمرصاد وأرادتها على أن تعود مرة أخرى إلى مصر حيث تنكمش فيها حتى تصبح معزولة فيسهل التغلب عليها واستعمارها .

إن إنجلترا قد ألبت الدول الكبرى فى ذلك الحين (روسيا — النمسا — فرنسا — بروسيا) على القوات المصرية المنتصرة التى بلغت قوتها وفتح الطريق أمامها إلى القسطنطينية لأنها رأت أن دما جديداً قد تدفق وأن الأمة العربية ستأخذ مكانها القديم قوة وتماسكاً ، وفى هذا الخطر كل

الخطر على خططها الاستعمارية التى كانت تمهد لها آنذاك .

وإنجلترا لم تكتف بما اتفق عليه من أن تكون سوريا ومصر دولة موحدة وأن تنسحب القوات المصرية من الأرض التركية بل إنها أمعنت فى التضييق على مصر فى سنة ١٨٣٩ م بعد انهزام الاتراك فى موقعة « نصيبين » أمام الجيش المصرى وموت السلطان محمود ومحاولة الأتراك إنقاذ ما يمكن انقاذه من البلاد التركية التى أخذت الدول الكبرى تلتهمها جزءاً فجزءاً بأن تضم أسطولها إلى الأسطول المصرى وأن تدع الفرصة للعرب والمصريين ليدافعوا عن الأمة الإسلامية .

إن إنجلترا أكرهت مصر إكراهاً بعد تهديدها بضرب الإسكندرية بأسطولها على أن ترد الأسطول التركى ، وأن تجلو عن سوريا ليس هذا فحسب بل أن تظل مصر على تبعيتها لتركيا وإمعاناً فى إذلال مصر عليها أن تؤدى الجزية السنوية إلى تركيا .

إن إنجلترا فعلت ذلك لتبقى على الرجل المريض من ناحية وتهدف بهذا إلى وقف تدفق القوات الروسية على الشرق الأوسط ، ولتعمل من ناحية أخرى على تحطيم القوة الجديدة المتدفقة من وادى النيل ، وانتهاز الفرصة لوضع قدمها فى الشرق الأوسط بعد اثنين وأربعين عاماً من معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م .

بل إن إنجلترا أخذت تمهد للاحتلال حين شُقت قناة السويس وعملت على إرباك الميزانية المصرية لتهيئ لنفسها التدخل بحجة إقرار الأمن حين قامت الثورة العرابية .

إن سياسة إنجلترا فى الشرق العربى قامت على المؤامرات الاستعمارية وشراء الذمم بالأموال والتهديد باستخدام القوة وبذر بذور الفوضى والاضطراب عن طريق جواسيسها وعملائها .

لقد انتهى بها الأمر إلى احتلال مصر ثم انتهزت الفرصة بعد قيام الحرب العالمية الأولى وانضمام تركيا إلى ألمانيا إلى أن تستولى على ما تبقى للعثمانيين من بلاد فى الشرق العربى وأن تتفق مع فرنسا على احتلال سوريا ولبنان كل هذا فعلته لتقطيع أوصال الأمة العربية .

(٥)

ويجدر بنا فى هذا الفصل الذى عقد عن الأمة العربية قبل الاستعمار أن نفرد بالحديث مشروع « الجامعة الإسلامية » الذى دعا إليه السلطان عبد الحميد وجعل داعيته الأول جمال الدين الأفغانى .

إن هذا المشروع ما أقيم إلا للإبقاء على الدولة العثمانية التى كانت تعالج سكرات الموت وتراش إليها السهام من كل جانب .

والجامعة الإسلامية تقابل الجامعة العربية وهو مشروع محمود لأنه يقوم على لم شمل الدول الإسلامية جميعاً كالأمر فى أول قيام الدعوة الإسلامية ولكن المشروع لم يقدر له النجاح لماذا ؟ . .

لأنه لم يكن خالصاً لوجه الدعوة الإسلامية ولأن الدولة العثمانية كانت قد أنهكت قوى الدول العربية ، وخلفتها على شفا الهاوية وأقامت حزازات

تركت كاوداً لا تتدمل وقلوباً تغلى بالحقد والمرارة ، ولأن لواء الإسلام يخفق على دول شتى ، مترامية الأطراف بعيدة المنأى فمن العسير أن تجتمع على سياسة موحدة ليس هذا فحسب بل إنها تضم أجناساً شتى وحضارات قديمة متباينة .

وفى يقينى ويؤيدنى شواهد التاريخ أن الجامعة العربية إذا توحدت أهدافها السياسية كانت خط الدفاع الأول والمكين للإسلام والحفاظ عليه ؛ لقد كان مركز الدولة الإسلامية الحجاز فالشام فالعراق فمصر ثم تركيا ، وفى تركيا اتخذت طابعاً محلياً ومن هنا كان ضعفها وانتهاز الدول العربية الفرصة للإفلات من هذا الرباط الواهى .

على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لم تدم طويلا إذ ظهرت الدعوة فى حزب (تركيا الفتاة) إلى التخلى عن فكرة الجامعة الإسلامية ومن هنا نرى أن تركيا لم تكن مؤمنة فى قرارة نفسها بدعوتها إلى الجامعة الإسلامية ، ثم شاءت أن تسير فى خطة التحرر من الارتباط بالعروبة وإلى أن تكون دولة علمانية .

مثل هذه الدولة لن تستطيع اليوم أن تحمل علم الدفاع عن الجامعة العربية أو إنفاذ مشروع الجامعة الإسلامية .

ليس من غايتى فى هذا البحث أن أتحدث عن القومية العربية اليوم وإنما أترك تكملة هذا الحديث لمن حملوا عنى عبء المضى فيه فإلى قريب .

القومية العربية

(دراسة تحليلية)

بقلم

الدكتور يحيى عويس

كلمة عامة :

من مظاهر تكوين العالم كما عرفناه خلال القرون الأخيرة أنه يتكون من دول ذات حدود سياسية معينة ، كما أن من مظاهر تكوين هذه الدول أنها تجمع أفراداً يدينون بالولاء لأمتهم . . . فأصبحنا نألف فى التعبيرات الحديثة لفظ « عصبة الأمم » أو « الأمم المتحدة » . والفرد داخل الدولة يعيش « كمواطن » ويتحدث عن « وطنه » ؛ والوطن له كيان معترف به — أو قد يحاول أفراده أن يوجدوا لهم مثل هذا الكيان — فنشير إلى جماعة المواطنين على أنهم يكونون أمة أو « دولة قومية » ، ونتحدث عن شعور وطنى ، أو وطنية ، أو شعور قومى ، أو حركات قومية ، وأحياناً « أحزاب قومية » و « أحزاب وطنية » .

ورغم تعدد الألفاظ والكنايات فإننا غالباً ما نقصد الإشارة إلى ظاهرة واحدة نحس بها رغم صعوبة تعريفها أو اختيار اصطلاح متفق عليه

لوصفها . وهذه الظاهرة تنحصر فى أننا نجد ملايين الأفراد فى الوطن الواحد أو الأمة الواحدة متأثرين فى عواطفهم وسلوكهم بفكرة الولاء للوطن . إنهم يحسون « بوحدة قومية » وبشعور متبادل مع إخوانهم فى الوطن بغض النظر عن ميولهم الطائفية أو الدينية أو المذهبية ، أو المصالح المادية الفردية ويزداد هذا الشعور وضوحاً فى حالات الحرب عند ما تطلب الدولة الولاء الجماعى من مواطنيها وتدعوهم إلى تناسى مصالحهم الشخصية أو الحزبية للتفكير فى القضية الكبرى قضية الوطن أو المصلحة القومية . وإن كانت الحرب تزيد من مظهر التضامن القومى إلاّ أنها فى الواقع تدفع إلى الخارج ما هو دفين فى نفوس الأفراد ، ذلك الشعور بأن الوطن فوق كل شىء ، وأن مصلحة الوطن فوق المصالح الطائفية أو الفردية . وأن القضايا القومية تعلو كل القضايا الأخرى .

والشعور القومى جزء لا ينفصل من التراث والتقاليد والعادات التربوية التى يتوارثها الأفراد فى المجتمع الواحد . فمنذ الطفولة يرى أبناء الوطن الواحد علم بلادهم قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة ؛ ويتغنون بالأناشيد الوطنية ، ويستمعون إلى قصص الأبطال القوميين ، ويتعملون تقديس الوطن واحترام رايته ، ويحتفلون مع الكبار فى الأعياد القومية ، إلى غير ذلك من المظاهر التى تغرس فى قلوب النشء حب الوطن والافتخار به والتحمس له . وينتقل الصبى إلى مرحلة الشباب ، فيزداد تعرفاً على وطنه ويزداد حبا له ، وإن انخرط فى سلك الكشافة أو منظمة من منظمات الشباب أو الحرس الوطنى بدأ يشعر بحقيقة معنى « تقديس الوطن » و « الواجب الوطنى » حين يؤدى

« يمين الولاء » على النحو المعهود . . . وهكذا نجد الفرد خلال المراحل المتتالية من حياته يتدرج فى تشرب الروح القومية من تلقاء نفسه حتى وإن لم يكن قد تشبع بألوان التربية المدرسية التى تعنى بالتهذيب الوطنى وغرس الروح القومية . وإن سلمنا بأن الشعور القومى قد يوجد فى الفرد دون الحاجة إلى توجيه تعليمى إلاّ أنه ما من شك فى أن التربية القومية لها أبلغ الأثر فى صقل الأذهان إلى الدرجة التى تصل بمدارك المواطنين إلى المستوى الأمثل الذى فيه يقدسون ويحترمون الواجب الوطنى والمعنى الحقيقى للقومية ، فارتفاع المستوى الثقافى والوصول بالتنظيم الاجتماعى إلى مستوى راق يطبع عليه الأفراد يعتبران من المقومات الأساسية للنضوج القومى الصحيح بعيداً عن التأثيرات المذهبية المغرضة والتيارات الديماجوجية المخربة .

وقد تعددت التفسيرات والآراء المختلفة فى تحديد أهمية المقومات المختلفة لنضوج الروح القومية . وقد ثبت من تكوين وتاريخ الدول الحديثة أن الروابط العنصرية أو اللغوية أو الدينية ليست بكافية أو ضرورية لخلق القومية أو تدعيمها . ولذلك لجأ بعض الكتاب إلى تفسير القومية على أنها تعتمد على التقاليد والعادات الاجتماعية المشتركة كرابط يجمع بين المواطنين فى حدود سياسة واحدة . ولكن الأمثلة كثيرة للتدليل على أمم حديثة نشأت فيها الروح القومية دون أن يوجد بين مواطنيها تراث مشترك من التقاليد والعادات ودون أن يكون لها ذلك التاريخ الطويل من العيشة الجماعية المشتركة .

بيد أننا يمكننا القول بأن الروح القومية كما وجدت بين القرنين

الخامس عشر والعشرين جاءت فى غالب الأحيان كنتيجة لصراع بين مجتمعين يختلفان فى اللغة أو الدين أو المذهب أو لون الحياة العامة . فقد ولدت القومية الهولندية نتيجة صراع ضد الحكم الإسبانى لهولندة ؛ وولدت القومية السويسرية نتيجة كفاح ضد النمسا ؛ ونشأت الروح القومية فى السويد وتولدت أركانها بعد صراع متواصل على مر السنين ضد الروس تارة وضد بولندة وألمانيا تارات أخرى . وولدت القومية الأمريكية ونمت بعد حرب الثورة الأمريكية . وفى إيطاليا كان للقومية الإيطالية الفضل فى تحقيق الوحدة الإيطالية بعد صراع ضد النمسا وبفضل النضال المشترك لمقاومة الغزو الأجنبى . وتمكنت ألمانيا من تحقيق وحدتها وتثبيت مكانة قوميتها بعد صراع ضد الدانمرك وضد النمسا وضد فرنسا . . بعد أن كانت الغزوات النابوليونية قد أوجدت لسكان بروسيا وباڤاريا وڤورتنبرج رابطاً مشتركاً فى صراعهم ضد الخطر الأجنبى وجعلت من هؤلاء جميعاً قومية مشتركة هى القومية الألمانية أو الجرمانية .

وبدأت « فكرة القومية » فى القرن التاسع عشر تنتقل إلى الدول التى لم تكن قد قطعت بعد مراحل بعيدة فى التنظيم السياسى المستقى من النظم الأوروبية ، فقامت فى البلقان حركات قومية بلقانية نتيجة الصراع ضد الأتراك ؛ كما تولدت فى الإمبراطورية العثمانية نفسها حركة تنادى بالقومية التركية وتطالب بتأكيدها وتثبيتها ، كما قامت كذلك حركات قومية فى إيرلندة واليابان والهند والصين وكانت الروح الدافعة فى كل منها هى الصراع ضد النفوذ الأجنبى . وهكذا نرى أن الأمم فى المجتمع الدولى تنضج

وتتولد لكل منها — نتيجة اتصالها بعضها بالبعض الآخر — شخصية خاصة بها ، تماماً كما ينضج الفرد فى المجتمع الواحد ويتخذ لنفسه شخصيته الخاصة به . والسبب واضح فى أن الحروب تزيد من الرابطة القومية وتقويها إذ أن الصراع ضد خطر خارجى — يحتاج إلى التآخى والترابط والتماسك بين أفراد الإقليم الواحد ، كما يحتاج إلى تضحية المصالح الذاتية فى سبيل تحقيق الأمنية القومية وهى الانتصار على العدو المشترك .

والوطن — أو الدولة القومية — يعتبر فى نظر المواطن أعلى مراتب التنظيم الاجتماعى . فمصالح الوطن — أو المصالح القومية — تعلو كل مصلحة أخرى فردية أو طائفية . والوطنى الحق يضع آمال وطنه ومصالحه فوق كل اعتبار آخر . فهو على استعداد لأن يضحى بحياته فى سبيل وطنه ، بينما لا يضحى بنفس الثمن فى سبيل حزبه أو طائفته مثلا . والوطنى الحق هو ذلك الفرد الذى ينظر إلى القضايا والمصالح فى إطار المصلحة العليا لوطنه ، يسير مع السياسة التى تحقق الهدف الأسمى ، يحافظ على سلامة بلاده ويحقق لها استقلالها ، ويسعى جاداً ومضحياً فى سبيل تعزيز قوة وطنه والدفاع عنه إذا ما واجه خطراً من الأخطار . وجانب الوطنية هذا فى حياة الأفراد جانب يعتزون ويفخرون به ، وتجاهل الواجب الوطنى خيانة يعاقبها الخاص والعام . . . وإذن فكل محاولة للتقليل من شأن الروح القومية الموجودة وجوداً طبيعياً فى الأفراد ، وكل محاولة للقول بأن الحركات القومية أصبحت من الظواهر البالية التى لا تساير التطور والزمن ، كل محاولة من هذا النوع تعتبر خروجاً على المنطق ، وكل تجاهل للروح القومية أو محاولة

للحد من نموها والتعبير العملي عنها لا يمكن تفسيرها إلا بأنها وسيلة للقضاء على كيان الأمة وكيان مواطنيها .

ولعلنا نذكر هنا على سبيل المثال أنه حتى روسيا السوفيتية — التي يظن الكثيرون أنها قضت على فكرة القومية وأن مذهبها الشيوعي ينتفي معه وجود قوميات محلية — حتى روسيا هذه بمذهبها المعروف لم تكن لتتجاهل فكرة القومية والتراث القومي الذي يعتز به المواطن وبه يفخر ومن أجله يضحي . . . لننظر مثلاً إلى إحدى الخطب الحماسية الروسية — خطبة إيليا إيهرنبرج في الجيش الأحمر عام ١٩٤٣ إذ جاء فيها : « أيها الجنود ! إن أبطال سباستبول يسيرون معكم جنباً إلى جنب . . . إن أجدادكم يسيرون معكم في المعركة ، أجدادكم الذين كان لهم الفضل في جمع شمل بلادكم روسيا . . . معكم في المعركة يسير فرسان الأمير إيجور ولواءات ديمتري . . . ومعكم يسير جنود ١٨١٢ الذين قهروا نابليون . . . إن أبناءكم وأمهاتكم وزوجاتكم يسيرون معكم ليباركوكم . أيها الجندي ! إن روسيا تسير معك . . . استمع إلى خطواتها . . . في حمى المعركة تشجعك بكلمة حماسية . . . إذا ترددت وقفت لتساندك ، وإذا انتصرت قامت لتعانقك . . . »

أليس في هذا الخطاب أبلغ الدليل على أن ليس ثمة غنى عن التراث القومي والأماني القومية لبث روح الوطنية والاستبسال من أجل الوطن . كيف نوفق إذن بين قائل بأن روسيا السوفيتية لا تعترف بالقوميات وأن شيوعيتها تهدف إلى الدولية والقضاء على شخصية الدول ، وبين ما جاء في

مثل هذا الخطاب والمئات من أمثاله ؟

ويميل بعض المؤرخين إلى القول بأن القومية بمظهرها الحديث — قومية الدول — نشأت ونمت بعد الثورة الفرنسية وظهور مبادئ الحرية والمساواة والإخاء ، وبعد أن زالت الأمارات وزالت معها القوميات (أو العزوات) التى كانت مبنية على أساس التكتل من أجل الأسر الحاكمة من ملوك وأمراء وملكات وأميرات . يقول هؤلاء المؤرخون : إن مبادىء الثورة الفرنسية التى انتشرت فى شتى بقاع الأرض وكان لها صداها ، والتى جعلت لواء السيادة ينتقل من يد الحاكم المستبد إلى يد الشعب ، إن تلك المبادئ كان لها الأثر الأول فى نشر روح القومية فى الدول الحديثة . وهذا التفسير له ما يؤيده تاريخياً مع تحفظ أساسى وهو أن الركن الوحيد من مبادىء الثورة الفرنسية الذى تحقق وكان له صدى بعيد فى بعث روح القومية هو ركن « الإخاء » . ذلك لأن الكثير من الدول القومية نشأت ونمت فيها روح القومية والحماس الوطنى على الرغم من أن الحرية والمساواة ظلتا بالنسبة للملايين من مواطنيها حلماً صعب المنال . فقد لا تسود المساواة بكامل معانيها جميع المواطنين فى الدولة وأن تساووا نظرياً أمام القانون ؛ وقد لا تكتمل الحرية بكل معانيها لجميع المواطنين ، ولكن هذا لم يمنع من وجود روح قومية يدفعها هذا « الإخاء » الذى يجعل من المواطنين « إخوة » يشتركون فى تحقيق مصالح وطنهم الكبرى .

وقبل ختام هذه الكلمة العامة يجدر بنا الإشارة إلى ألوان أخرى من القومية حتى نتبين الفارق بين المحمود منها والمنبوذ . فكلنا يعلم أن الفترة ما

بين الحربين شاهدت نشوء قومية فاشية (أو فاشية قومية) فى بلاد كألمانيا وإيطاليا ، بيد أن تلك القوميات اتخذت شكل نزعات مذهبية كانت لها خصائص مشتركة وإن اختلفت فى مظهرها الخارجى والتطبيقى . لقد كان مولد تلك القوميات الفاشية « صراعاً » ضد أعداء — أعداء فى الماضى والحاضر والمستقبل . ولكنها لم تكن تلك القومية التى يحركها الشعور العام لطبقات الشعب ، وإنما كانت قومية طبقة حاكمة أملت إرادتها على الشعب وهيأت له « الأعداء » و « الأخطار » ورسمت له السبيل للتوسع والطغيان بدعوى القضاء على هؤلاء الأعداء .

لم تكن النازية الألمانية ولا الفاشستية الإيطالية مثلا تركز دوافعها القومية على التحرر أو المساواة أو احترام الشخصية الفردية والعقائد والمذاهب ، وإنما كانت « قومية مملاة » بل قل إنها كانت مذهباً يفرض على المواطنين طاعة عمياء لدكتاتور حاكم وانصياع أعمى لقوانين وتوجيهات تفرضها السلطة الحاكمة بدعوى « مصلحة الدولة » . واقتضى هذا الوضع الفاشى القضاء على ما سموهم أعداء القومية : فكان القضاء على الأقليات العنصرية والدينية واللغوية ؛ وكان كذلك القضاء على كل هيئة أو جماعة أو طائفة يتبين أن هدفها الانتقاص من سلطة الطبقة الحاكمة حتى ولو اقتضى ذلك انتفاء جميع القيم والمثل والمبادىء الأخلاقية . وهذا التصرف هو الذى ألقى بتلك العظم إلى الحضيض ، وكان السبب الأول فى هدم مصير المواطنين على نحو ما شاهدناه . . .

إن تلك القومية العدوانية المظهر والمسلك والمبدأ والتى كانت تقوم على

نظريات واهية من سموعنصرى واضطهادوتنكيل لبعيدة الشبه عن الروح القومية الحقة فى الدول الحديثة النامية حيث يشترك جميع المواطنين بإحساسهم الحقيقى وبكل عواطفهم فى تحقيق الآمال الوطنية دون انصياع لمذهب أو عقيدة معينة ، ودون التفكير فى رابط دينى ضيق أو إقحام نظريات عنصرية بالية فى تنظيم اجتماعى حديث . لقد ثبت خطأ القومية الفاشية ، وكانت لها ضحاياها ، فما بال بعض دول الغرب تحاول تكرار المأساة ، وتحاول إصلاح أخطاء هتلر وأتباعه بأن تحيل « ضحاياه » — هكذا يسمونهم — على قطر عربى وكأنها تحثهم على أن يثأروا لأنفسهم لا من أقطاب النازية ولكن من العرب العزل الآمنين ؟!

* * *

القومية وحق تقرير المصير :

لقد أدى انتشار مبدأ تقرير المصير إلى المزيد من التعقيدات اللفظية فيما يتعلق بكلمتى « دولة » State « وأمة » Nation . فعند ما نتكلم عن حق تقرير المصير لا بد أن نعين ماذا كان المقصود هو حق الدول ، أم حق المواطنين داخل الدول . والتفرقة بين الكلمتين لن تكون صعبة إذا اتبعنا قاعدة منطقية وهى أن الأمة هى مجموعة من الأفراد ، وإن كانت التعبيرات المألوفة قد أسبغت على الأمة صفات سياسية وأمانى وآمالا سياسية ، إلاّ أن ذلك لا يغير من طبيعة الأمة من حيث كونها مجموعة من الأفراد وليست أرضاً أو هيئة إدارية . فالأمة تكوين طبيعى أو

« عضوى » ، بينما الدولة تكوين لا طبيعى أو سياسى . فهناك دول عربية ولكن ليس هناك إلا أمة عربية واحدة على نحو ما سيأتى تفسيره بعد .

ومن الفروض المسلم بها فى الحركات القومية الحديثة أنها تقوم على أساس تحقيق الهدف الأسمى وهو الاستقلال القومى . فدعاة القومية فى كل دولة من دول العالم يسلمون بأن المبدأ الأول الذى يقيمون جهودهم لتحقيقه وتقديسه هو صيانة استقلال وطنهم — وأن تكون مظاهر هذا الاستقلال حكم البلاد بأهل البلاد ، وتمكنهم من تسيير أمورهم دون تدخل أجنبى فى حياتهم الداخلية أو سياستهم الخارجية . فكما أن حق الوجود وحق الاستقلال يعتبران من الحقوق الأولى للأمم فى القانون الدولى ، فإنهما أيضاً يعتبران من المثل الأولى التى يدين بها كل وطنى فى دولته .

ولذلك فإن التحكم أو الضغط الأجنبى ، أو أى مظهر من مظاهر الطغيان أو الإذلال أو التدخل من جانب دولة أجنبية كفيل بأن يشعل نار القومية فى قلوب المواطنين ويزيد وطنيتهم حماسة ، فالوطنى ينظر إلى استقلال وطنه بكامل مظاهره ليس فقط على أنه الهدف الأسمى الذى يضحى بحياته من أجله ، بل يعتبر هذا الاستقلال حقاً من حقوقه العادلة التى ليس لأية قوة خارجة مهما كانت أن تحرمه منه . وليس من الغريب إذن أن يكون حق تقرير المصير والمطالبة بالحرية والمحافظة على استقلال الوطن من الصيحات الأولى لكل زعيم قومى ولكل وطنى فى أية دولة من دول العالم . . فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا . . . ولكن شر البلاء فى عصرنا هذا هو أن بعض الدول تريد لنفسها حق الاستقلال القومى وتحقيق المصلحة القومية

فى حين لا تعترف بهذا الحق لغيرها من الشعوب التى تقع تحت سيطرتها .

واليوم نرى الأمم فى ميدان السياسة الدولية تعبر عن شخصيتها وعن تطلعها إلى القوة والهيبة لا بغرض تحقيق مصلحة لأسرة ملكية حاكمة (كما كان الحال فى القرون الماضية) وإنما بغرض تحقيق مصلحة للأمة بأجمعها — أى لتحقيق « مصلحة قومية » . فلذلك تسعى الدول القومية إلى تعزيز قواها وهيبتها لصيانة مصالحها بشتى الطرق والوسائل ، ولكن المسئولين عن أتباع تلك السياسة فى بعض الدول الكبرى ينسون أنها قد تضر بمصالح أمم وشعوب ودول . وقد يطرب بعض الأفراد فى الدول التى تتبع سياسة السيطرة والتسلط والاستعمار والتحكم ؛ يطربون لسياسات حكوماتهم ويؤيدونها لما تنطوى عليه تلك السياسة فى رأيهم من تحقيق للصالح الوطنية ولكنهم غالباً ما ينسون أو يتناسون ألوان الظلم والهوان التى قد تلحقها السياسة الاستعمارية وأساليب التسلط بالأبرياء الضعفاء من أفراد الشعوب المغلوبة على أمرها .

بل والأدعى إلى الغرابة فى تصرفات بعض الدول الاستعمارية أنها تتخذ من التمييز العنصرى ذريعة تبرر بها اضطهادها للشعوب الضعيفة وتحكمها فى مصائرها ، فنسمع عن « سمو العنصر الأبيض » وتأخر « العنصر الأسود » ؛ نسمع عن « أوروبيين » فى المستعمرات يوصفون بأنهم العنصر الراقى الحاكم ، بينما يشار إلى أصحاب البلاد بكلمة « الأهالى » natives بما تحمل تلك الكلمة من كناية عن التأخر والخضوع الواجب للمستعمر « الأوروبى » . . . هذه أنواع من القومية الرعناء التى جبلت

عليها الدول الاستعمارية ، بينما هى فى الوقت ذاته تنكر على الشعوب المستعمرة حقها فى النهوض أو فى التطور والنضوج نحو الوعى القومى ونحو التحرر من السيطرة الأجنبية وهذا رغم اعتراف غالبية المذاهب السياسية بأن الحرية حق طبيعى لشعوب العالم قاطبة .

ويحار المرء فى إيجاد تفسير لمثل ذلك التصرف البادر من بعض الدول الغربية بينما كانت هى أول من دعا إلى التحرر وحقوق الشعوب فى الوقت الذى احتاجت فيه إلى تأييد الرأى العام العالمى . ففى الحرب العالمية الأولى كان موقف الحلفاء حرجاً ، وكان ساستهم فى حاجة إلى التأييد كما كانوا فى مسيس الحاجة إلى تأليب الشعوب ضد أعدائهم ؛ فاختاروا أسلوب الدعوة إلى « حق تقرير المصير » ، وتشجيع جميع الحركات القومية كوسيلة لتفتيت شمل إمبراطوريات الأعداء ونادوا فى سياق دعايتهم بأن قضية الحلفاء هى قضية العدالة والحرية . وقد كان الرئيس ولسن فى مقدمة الساسة الذين حددوا أهداف الحلفاء بأقواله وتصريحاته الرنانة التى صادفت آذاناً مصغية لدى كثير من الشعوب كما كسبت للحلفاء الملايين من المؤيدين لقضيتهم . . . « قضية العدالة والحرية » !

قال الرئيس ولسن فى خطابه أمام مجلس الشيوخ الأمريكى فى يناير عام ١٩١٧ (قبل دخول الولايات المتحدة فى صفوف الحلفاء) محدداً المبادئ التى كان يرى أن تقوم عليها السياسة الخارجية للدول الكبرى : « ليس ثمة حق لدولة أن تفرض سياستها على شعوب أو دول أخرى ، بل من حق كل شعب أن يقرر السياسة التى يرتئيها لنفسه وأن يقرر مستقبله

بكل حرية ودون ضغط أو تهديد من قوة خارجة ؛ وتستوى فى ذلك الحق الشعوب الكبيرة والصغيرة . . .

وفى خطاب النقط الأربع عشرة (٨ يناير عام ١٩١٨) طالب الرئيس الأمريكى بحق تقرير المصير لشعوب أوروبا الوسطى ، ثم أكد هذا المبدأ فى خطاب آخر أمام الكونجرس (فبراير ١٩١٨) جاء فيه « ليس من الجائز أن تقايض الأقاليم والشعوب من سيادة إلى أخرى كما لو كانت متاعاً أو قطع شطرنج . فلن يحكم شعب بعد اليوم إلاّ بمحض إرادته . إن حق تقرير المصير ليس مجرد عبارة جوفاء ، بل مبدأ حتمى يجب اتباعه ، والسياسى الذى يتجاهل هذا المبدأ فى سياسته يعرض نفسه (ودولته) للخطر . . . »

تلك كانت المبادىء التى هتفت لها قلوب الملايين من الشعوب المتطلعة للتحرر ، والتى استقى منها زعماء الحركات القومية مبادئهم وأهدافهم . ولكن ما إن وضعت الحرب أوزارها وتجمعت الدول حول مائدة الصلح حتى تكشفت السياسة المادية والنوايا الاستعمارية للدول المنتصرة . فلم تكن التقسيمات السياسية التى رسمت « للقوميات » الجديدة مبنية على أساس وحدة اللغة أو العنصر كما كان المفروض ، بل كانت المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للدول الغالبة هى الباعث الأول للحدود التى خطها ساسة الدول الكبرى المنتصرة لكى تفرض على الشعوب الأوروبية ، أما خارج أوروبا فلم يكن لدى تلك الدول إلاّ هدف واحد وهو اقتناص الفرص لبسط النفوذ الاستعمارى فى المناطق التى كانت تابعة

للدول المهزومة مثل تركيا وألمانيا . . . وخرجت علينا عبقرية سياسة الغرب بنظام « الانتداب » ، نظام تفتيت الأمة العربية إلى مناطق نفوذ استعمارية فرنسية وبريطانية . وطويت بذلك مبادئ الرئيس ولسن ، وانمحت من محاضر مؤتمرات الصلح لتحل محلها مناورات تبادل الأسلاب والغنائم وتقسيم مناطق النفوذ تحقيقاً للمصالح المادية للدول الغالبة دون النظر إلى حقوق الشعوب الضعيفة ولا إلى أمانيها وآمالها فى التحرر والاستقلال .

إن المؤرخ المنصف لا يسعه إلاّ الاعتراف بخطأ السياسة التى اتبعتها دول الحلفاء على مائدة الصلح ، فقد كانت تلك الدول تفرض شروطها للتقسيم ورسم الحدود السياسية طبقاً لمراميها ومصالحها الذاتية دون التقيد بمبدأ حق تقرير المصير ولا بمبادىء الحرية والعدل » التى أدعت أنها حاربت من أجلها ، وأشركت العالم فى الانتصار لها . فأى حرية هذه التى تفرض نظام الاستعمار باسم الانتداب على أرض الأمة العربية ؟ وأى عدالة هذه التى تفرض تشتيت الأمة العربية إلى دول متفرقة تفصل بينها حدود رسمتها أطماع السياستين الفرنسية والبريطانية ؟ وأى حق تقرير مصير ذلك الذى قضى بوضع المواطنين من الألمان فى التيرول والألزاس « والممر البولندى » تحت سيطرة أجنبية ؟ وكيف نفسر من قبيل تحقيق « الأمانى القومية » تشتيت الشعب المجرى على نحو جعل فريقاً منه يقع تحت سيادة رومانيا ، وفريقاً آخر يقع تحت سيادة يوغوسلافيا ، وفريقاً ثالثاً تحت سيطرة تشكوسلوفاكيا ؟

حقاً لقد أقيمت الاستفتاءات فى بعض المناطق لكى يحدد سكانها رغبتهم فى الانضمام إلى هذه الدولة أو تلك ، بيد أن تلك السياسة كانت دائماً أبداً تتبع بغية التمادى فى تفتيت قوة الدول المهزومة بدعوى حق الأقليات فى تقرير مصيرها وتعيين نوع القومية التى ترغب الانضمام لها . ثم يعجب ساسة الدول الغربية بعد ذلك كيف أن أخطاء ما بعد الحرب العالمية الأولى كانت السبب المباشر فى الأزمات الدولية المتتابعة فى الفترة بين الحربين ، كما كانت من الأسباب الرئيسية لقيام الحرب العالمية الثانية . ويعجب ساسة الغرب بعد ذلك أيضاً كيف أن الدول العربية قامت فيها حركات مناوئة للاستعمار الغربى ، منادية بالاستقلال والتحرر وحق تقرير المصير ، وداعية إلى الوحدة الطبيعية بين الأقاليم العربية التى يكون سكانها أمة عربية واحدة . ويا ليتهم يقتصرون على مجرد ادعاء التعجب ، بل إنهم يصفون الحركة القومية العربية بأنها سلسلة من فورات الشغب والاضطرابات التى تدفعها وتحركها مصالح دول معادية ، وأقليات تسعى للاضرار بمصالح الأمة العربية ! ! وإنه لمنطق عجيب حقاً ذلك الذى يقول للوطنى المتحمس لوطنه إنه يضر بمصلحته لأنه يطالب بالتحرر وبحقه الطبيعى وحق أمته فى تقرير مصيرها والتخلص من النفوذ الأجنبى ! ولكى هكذا يدعى سياسيو الاستعمار فى القرن العشرين حين يحاولون فرض سياستهم على الشعوب الناضجة عن طريق أساليب القرون الوسطى .

والآن لا بد لنا أن نستخلص مقياساً ندرس على ضوئه القومية كظاهرة فى المجتمع الدولى . ما هى مقومات أو أركان القومية ودوافع الشعور القومى؟

أهى وحدة اللغة أو الدين أو العنصر ؛ أم هو التراث الاجتماعى ، أم النضال المشترك والكفاح ضد الخطر الأجنبى ؟ من الواضح أن كلا من تلك المقومات على انفراد لا تعتبر كافية لتكوين « أمة » أو قومية فى العصر الحديث ، ولا بد من وجود أكثر من عامل وأكثر من رباط يجمع شمل أفراد الأمة الواحدة ويجعل من قوميتهم حقيقة واقعة وشعوراً راسخاً لا مجرد نظرية واهية وخرافة سياسية . وكلما تعددت وكثرت الروابط وعوامل بث روح القومية بين الأفراد كلما كانت قوميتهم أكثر رسوخاً وأبرز شخصية بين المجتمعات الدولية . وكلما علت مراتب الثقافة والنضوج السياسى والاجتماعى كلما كان الأمل كبيراً فى أن يتفهم الأفراد حقيقة مصالحهم القومية . فليس أخطر على الحياة العامة وعلى سياسة الدولة ومصيرها من جهل قادتها وسياسييها ، والأخطر على مصير الأمة هو جهل مواطنيها ، فهذا الجهل يجعل منهم لقمة سائغة للديماجوجيين ، وفريسة سهلة لمطامع الدول الأجنبية .

فى إطار هذه التفسيرات والمشاهدات التاريخية العامة سوف ندرس القومية العربية . . . سوف ندرس حيويتها ودرجة نضوجها ؛ وسوف نتعرف على حقيقتها ومستقبلها . . . سوف نبين مدى أثرها على حياة الأفراد فى الأمة العربية ؛ وحين نتعرف حقيقة القومية العربية ودوافعها نستطيع الرد على افتراءات كتاب الغرب المغرضين ونبين أن القومية العربية إنما هى ظاهرة طبيعية حقيقية ، تنمو وتتطور مع الأحداث بالنضوج التدريجى

والوعى المتزايد لدى الأفراد فى الأقطار العربية ، وفهمهم لمصالحهم وحقوقهم الطبيعية واشتراكهم فى المقومات الأساسية للأمة إلى الدرجة التى لا تترك شكاً فى أنهم يكوّنون أمة واحدة ، بل هم أمة واحدة فعلا .

القومية والدول العربية :

إن العالم العربى اليوم منقسم إلى عدد من الدول المستقلة (أو التى تكافح من أجل استقلالها) ، وهذه الدول قد تكونت وسارت على نظم سياسية مستقاة من المذاهب التى سادت أوروبا فترة من الزمن ونشأت خلالها ظاهرة القومية والدول القومية وتطورت على النحو الذى شاهدناه . وقد كانت القومية فى تلك الفترة من تاريخ أوروبا تعنى ولاء الفرد للدولة معينة لها كيانها وحدودها السياسية . والمواطنون فى تلك الدول يعربون عن شعورهم القومى لا لمجرد رغبتهم فى أن يكونوا بلچيكيين أو سويسريين أو سويديين مثلا ، وإنما لأنهم كأفراد بلچيكيين أو سويسريين أو سويديين يتمسكون بالانتماء إلى دول مستقلة ذات سيادة تامة هى بلچيكا وسويسرا أو السويد .

وحين انتقلت ظاهرة القومية والدول القومية فى القرن العشرين إلى الشرق العربى ، انتقل معها نفس الفكر الدافع للقومية فى الدول الأوروبية وأصبح هذا الفكر القومى يسيطر على المواطنين العرب فى الأقطار العربية . لقد كان العرب خلال القرون يكونون جماعة واحدة مترابطة متماسكة تؤلف بينها الروابط الروحية من لغة ودين وثقافة وبيئة وتراث مشترك . ظلوا كذلك

إلى أن جاءت السياسة الاستعمارية فشتتت وحدتهم وقسمتهم إلى أقطار أو دول تحمل اسم العراق وسوريا ولبنان وغيرها . . . فتكونت فى الشرق الأوسط إذ ذاك دول جديدة لكل منها كيان منفصل وحدود سياسية مرسومة . ولما كان سكان تلك الدول الجديدة قد منوا بالاستقلال الذاتى فقد بدأ يتولد لديهم شعور بالولاء لدولتهم التى جمعتهم وحددت لهم كياناً خاصاً وشخصية خاصة ، بل وأوجدت لهم « جنسية » جديدة . وبتوالى السنين وانشغال الأفراد فى قضاياهم المحلية الخاصة بدولهم تناسى سكان « الدول » العربية الجديدة ولاءهم السابق للأمة العربية .

وإذ كانت الأوضاع السياسية فى العالم العربى من دول مستقلة ودول تسعى للاستقلال ، كانت السياسة الاستعمارية من جانب فرنسا وإنجلترا تسعى إلى ازدياد حدة التفرقة السياسية بين كل مجموعة من العرب ، وكانت تنشر بينهم روح الانفصال السياسى والكيان الذاتى حتى تبتعد هذه الدول الحديثة التكوين عن فكرة « الأمة العربية » ، وقد كانت هذه السياسة الاستعمارية كخطوة أولى لإيجاد الشقاق بينها وعزلها بعضها عن البعض الآخر . كان هذا هو هدف الاستعمار الذى سخر له عملاءه من أفراد جعل منهم طبقة حاكمة تساندها وزارتا الاستعمار فى لندن وباريس وهى — أى تلك الطبقة — فى الوقت ذاته طيعة لينة تخضع لما تمليه السياسة المادية للاستعمار . ولكن توالى الأحداث ونضوج الفكر السياسى والثقافى واستكمال السيادة المحلية فى معظم الدول العربية بعث فكرة الأمة العربية والقومية العربية مرة أخرى ، وتوالت الأحداث فهيأت لها الجو فى السنين الأخيرة .

والذى نريد بحثه فى هذا المقال ليس فكرة القومية العربية كمجرد عامل روحى أو معنوى يربط بين الدول العربية المنفصلة . وإنما نريد تتبع حقيقة الأمة العربية كأمة متحدة الأمانى والآمال رغم ما يفرق بينها من حدود سياسية . وبمعنى آخر نريد أن نثبت ما إذا كان بين العرب فى دولهم المستقلة من الروابط ما يجعل منهم أمة واحدة لها خصائص الأمم فى العصر الحديث ، ويمكنها أن توجد لنفسها كياناً ذاتياً أمام بقية دول العالم . ولعلنا نركز جهودنا فى البحث على العامل الأساسى فى تكوين الأمم وهو الكفاح ضد الاستبداد الأجنبى . لأننا نعلم تماماً أن المقومات الأخرى متوافرة فى الأمم العربية من وحدة فى اللغة والدين « والشعور بوحدة العنصر » ووحدة الثقافة إلى غير ذلك من الروابط الروحية التى تجمع بين الدول العربية . ومن المعروف أيضاً أن الأمة العربية إذا كتب لها الاتحاد التام والإلتئام السياسى فى المستقبل لكى تكون « دولة قومية عربية متحدة » ، فإن الروابط الروحية والثقافية والعنصرية ستكون من الدعائم الأولى لتأييد استقرار مثل هذه الدولة .

وقد يقول البعض إن وجود عوامل أو مقومات مشتركة بين الدول العربية ليس فى حد ذاته كافياً لكى يجعل منها أمة أو دولة قومية تحقق التطور والنمو الديناميكى فى عالم يتسابق نحو القوة والهيبة وتحقيق المصالح . ورداً على هذا القول لا بد لنا أن نبحث المصالح الاقتصادية والسياسية للأمة العربية كعناصر أساسية فى تكوين قومية متماسكة قوية الأركان .

وسؤال آخر قد يتطرق إلى الذهن : إذا سلمنا بأن الدول العربية لها من

المقومات والمصالح ما يجعل منها أمة واحدة ، وأنها سعت جادة لجعل فكرة الأمة العربية حقيقة سياسية واضحة فى الميدان الدولى ، فهل يؤدى هذا إلى تضارب فى ولاء الفرد — ولائه لدولته المحلية وولائه للدولة القومية العربية؟ والجواب على هذا السؤال هو أن الدولة القومية العربية التى ستجمع بين الدول العربية القائمة ستكون مبنية على أساس الشعور القوى « بالعروبة » ، وستزداد تماسكاً وقوه إذا ما اشتركت فى كفاح ضد عدو خارجى مشترك ، كما أنها ستنمو وتزداد رسوخاً بالانتشار التدريجى للثقافة القومية العربية والوعى السياسى العربى . والميزان الأخير لحقيقة وجود الأمة العربية أو عدم وجودها هو قدرة أفرادها على إظهار عزيمة جماعية مشتركة وأمنية جماعية واحدة للعمل المتضافر إذا ما واجهت خطراً خارجياً . فمدى الشعور الجماعى وانطباقاته العملية هو المقياس الحقيقى الذى به نحكم على مستقبل دولة قومية عربية ، وهو كذلك المقياس الذى به نقيس مدى فاعلية القومية العربية كظاهرة فى أثرها فى ميدان السياسة الدولية .

لقد كان سكان الشرق العربى أيام الخلافة العربية وخلال سنى الحكم التركى يشعرون دائماً بأنهم يكونون أمة واحدة . لم تكن المسافات قد قربت والاتصالات قد سهلت إلى الدرجة التى نعرفها اليوم ، بيد أن جميع الأقاليم الناطقة بالضاد كانت تعلم أنها تكوّن مع جاراتها أمة عربية واحدة تربطها روابط تجارية بالإضافة إلى الروابط المعنوية والروحية واللغوية والإدارية . كانت هذه هى الحقيقة . ولم يكن العرب ليعرفوا الانقسام السياسى والقومية « الانفصالية » التى أقحموا فيها بتدبير إنجلترا وفرنسا . كان العرب يكونون

أمة واحدة فعلا رغم وجود إمارات وولايات ، لأن هذا التقسيم الإدارى كان سطحياً لا يؤثر فى حقيقة القومية العربية . وربما كانت هناك خلافات بين الإمارات والولايات والولاة والسلاطين . بيد أن تلك الخلافات لم تكن فى أى فترة من تاريخ الأمة العربية من الحدة بحيث تغير من حقيقة الوحدة القومية أو تحدث انشقاقاً تاماً ومعاداة بين قطر عربى وآخر إلى الدرجة التى تمحى معها الشخصية العربية لكل منهما .

كان هذا هو حال الأمة العربية فى الماضى إلى أن جاء الاستعمار الغربى ففرض على العالم العربى ذلك التقسيم والتفتيت الذى شاهدناه . وإن كان هذا التقسيم عامل إضعاف للأمة العربية إلاّ أنه كان فى الوقت ذاته دافعاً لبث روح المقاومة الجماعية ضد الاستعمار الغربى . فالقومية العربية التى بدأت فى الفترة ما بين الحربين كانت مدفوعة برغبة العرب فى مقاومة الاستعمار الغربى سواء فى أسلوبه الظاهر أو أساليبه المستترة . وفى الظروف التى لم تستطع فيها الحركات القومية العربية أن تتخذ مظهر الكفاح والمقاومة كان رائدها أن تكون الأمة العربية فى حالة استعداد للمقاومة ، أو لتعزيز إمكانياتها إلى الدرجة التى تستطيع بها مقاومة قوة المستعمر ، فقد علّم الغرب العرب أن درجة الهيبة والمكانة والتأثير فى عالم السياسة المادية تعتمد على الاستعداد العسكرى بقدر ما تعتمد على الاستعداد المعنوى .

والحركات القومية العربية كما عرفناها بعد الحرب الأولى جاءت كنتيجة مباشرة لضرورة قومية وهى مقاومة الاستعمار الغربى — فالاضطهاد الفرنسى فى سوريا والمغرب ، والضغط البريطانى فى العراق ومصر ،

وتجاهل الدولتان الاستعماريتان لمطالب العرب زاد من قوميتهم حماساً . إلاّ أن بذور القومية الحديثة فى الشرق العربى كانت قد غرست قبل الحرب العالمية الأولى . كانت حركة تركيا الفتاة قد حاولت لفترة قصيرة ضم بعض شباب العرب المتحمسين إليها ، ولكن سرعان ما تبين لكل وطنى عربى ألا أمل لدعم القومية العربية وتحقيق الأمانى القومية إلاّ بالانفصال عن كل ما هو تركى ، وجعل الأمة العربية تؤكد كيانها الذاتى بعيداً عن تركيا ونفوذها البالى وسياستها المهلهلة .

وفى عام ١٩٠٩ عند ما شعر قادة « تركيا الفتاة » بما سموه خطر الحركات القومية العربية أصدروا أوامرهم بمنع تكوين الجمعيات غير التركية فى الدولة العثمانية . وهنا اضطر رواد القومية العربية الحديثة إلى العمل سراً بعيداً عن أنظار الاضطهاد التركى ؛ وتكونت الجمعيات الوطنية العربية فى شتى أنحاء الشرق العربى يغذيها شباب العرب المثقف ، الذى عمل جاهداً على نشر الوعى القومى العربى الحديث بعيداً عن القبضة الاستبدادية للحكم التركى . وقد كان هؤلاء الشبان نواة لقادة القومية العربية فيما بعد ، كما كان منهم السياسيون القوميون البارزون فى سوريا ولبنان والعراق وغيرها من الأقطار العربية .

هكذا غرست بذور القومية العربية الأولى — كفاح ضد الأتراك ووحدة بين العرب ينادى بها الشباب الناضج الذى كتب له أن يشعل الروح العربية القومية بعد سبات بين أفراد الشعب استمر عدة قرون خلال الحكم العثمانى . وفى تلك الفترة التى نهضت فيها القومية العربية كان للعلم

وانتشار الثقافة أكبر الأثر فى سرعة انتشار الوعى القومى والنضوج السياسى . ومن الأدلة البينة على انتشار الوعى القومى والثقافة السياسية بين أفراد الشعب العربى — فى الفترة ما بين ١٩٠٠ حتى نشوب الحرب العالمية الأولى — ذلك الازدياد الظاهر فى عدد الجرائد والمجلات فى الأقطار العربية المختلفة . ففى تلك الفترة زاد ما نشر فى لبنان من ٢٩ إلى ١٦٨ جريدة ومجلة ، وفى سوريا من ٣ إلى ٨٧ ؛ وفى فلسطين من جريدة واحدة إلى ٣١ ؛ وفى العراق من جريدتين إلى ٧٠ ؛ وفى الحجاز من لا شىء إلى ستة . هذا بالإضافة إلى النشرات العديدة التى كان يقوم بإعدادها ونشرها جماعة من المهاجرين العرب الذين فروا من الاضطهاد التركى ليواصلوا جهودهم فى الخارج لصالح القضية العربية والتحرر من الطغيان التركى .

ولعل أحداث الحرب العالمية الأولى وما تبعها من تسلط استعمارى غربى فى غنى من أن تعرف أو تزاد إيضاحاً . كما أن من المعروف أيضاً أن النوايا الاستعمارية الغربية لم تكن بخافية على قادة القومية العربية المخلصين ، فكتب لهؤلاء إذن أن يضاعفوا الجهود بعد أن تبين لهم أن الاستعمار الغربى يريد أن يحل محل الاستعمار التركى الزائل . وإننا نذكر هذه الحقيقة ونؤكدها رداً على مزاعم بعض المؤرخين الغربيين الذين يدعون بأن فترة الحركات القومية العربية انتهت بزوال الحكم التركى الذى كان (على حد قول كتاب الغرب) السبب المباشر لقيام تلك الحركات ، وأن كلا من إنجلترا وفرنسا ساعدتا الدول العربية على تحقيق أمانيها بالتخلص من الاستبداد التركى وإيجاد كيان ذاتى منفصل لكل منها كدول قومية ذات سيادة .

والغرض من وراء هذا التحليل التاريخى المزيف ظاهر واضح . فكتاب الغرب الذين ينسجون مثل هذا التفسير يرمون إلى القول بأن القومية العربية « السليمة » انتهت مهمتها بعد الحرب الأولى ، وأن الحركات القومية التى ظهرت فى الدول العربية بعد ذلك إنما كانت حركات شغب واضطرابات تسيرها قوى مغرضة من أعداء بريطانيا وفرنسا ومن الدول التى كانت تضمر لها الشر . إن مثل هذا القول اجتراء على الحق والتاريخ ، فالحركة القومية العربية لم تنقطع بتاتاً بمجرد تكوين دول عربية مستقلة أو خاضعة لنظام الانتداب . إن ما حدث هو أن الشعب العربى أُجبر قسراً وبالقوة على الخضوع للتنظيم السياسى الذى فرض عليه فى مؤتمرات الصلح ، وما تلاها من مفاوضات ومعاهدات غير متكافئة فرضتها بريطانيا أو فرنسا . وعند ما تكونت الدول العربية الحديثة بعد الحرب واستقت نظم الحكم المألوفة فى المذاهب السياسية الغربية لم يكن معنى ذلك إنعدام شخصيتها العربية ، أو انتفاء مقومات القومية العربية فيها . فبينما كانت خطط التقسيم السياسى للعالم العربى تعمل على الانفصال كانت هناك الروابط المعنوية والروحية تعمل على دوام الوحدة واستمرار الشعور القومى العربى ، تدعمه وحدة اللغة والدين والثقافة وتساعد على انتشاره الصحافة العربية .

وعليه فبينما كان قادة الحركات القومية العربية يعملون فى نطاق « إقليمى » أو « محلى » كل فى « دولته » ، كانوا جميعاً يشعرون ويحسون بضرورة القضاء على العدو الأجنبى المشترك ، وفى الكفاح ضد العدو

الاستعمارى المشترك كان العرب متحدين قلباً وروحاً حتى وإن لم يكن فى وسعهم إتخاذ إجراءات جماعية أو أتباع سياسة خارجية موحدة ضد هذا العدو ؛ لقد كانت سياسة الاستعمار فى جميع الدول العربية واحدة فى مظهرها وأساليبها ونتيجتها . كان كفاح القومية العربية ضد الاستعمار فى إقليم معين منفصلا سياسياً عن الكفاح فى الأقاليم المجاورة ؛ ولكن صدى هذا الكفاح وردّ فعله كانت تشترك فيه جميع الأقطار العربية ، أى تحس به الأمة العربية بأسرها .

فى مصر كان الكفاح الذى بدأ منذ ١٨٨٢ ضد الاستعمار البريطانى قد وصل إلى أشده عند ما رفضت بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى الاعتراف بوفد مصرى فى مؤتمر الصلح . وكان ذلك التحدى إيذاناً ببدء دورة أخرى من الكفاح الذى زادت حدته حتى بعد الاعتراف الاسمى باستقلال مصر عام ١٩٢٢ . فلم تكن الحركة القومية المصرية لترضى بذلك المظهر الخارجى للاستقلال بينما كانت البلاد فى الواقع خاضعة للنفوذ الاقتصادى والسياسى البريطانى . وحتى بعد معاهدة ١٩٣٦ وبعد « المساواة » التى قيل إنها اتخذت أساساً للعلاقات بين بريطانيا ومصر بعد المعاهدة ، استمرت سياسة الضغط والإملاء والتسلط على الحياة السياسية فى مصر . وإن كانت بريطانيا تنكر هذه الحقائق وتدعى أن علاقاتها مع مصر كانت مبنية على أساس معاملة الند للند ، وإقامة الصداقة والود بين البلدين ، فلعل أفعالها خير شاهد على جرائمها السياسية فى حق مصر . ولعلنا نذكر هنا شهادة المستر وندل ولكى الأمريكى عند زيارته لمصر أثناء

الحرب العالمية الثانية ، إذ لم يخف الحقيقة حين قال « إن اللورد كيلرن سفير بريطانيا هو الحاكم الحقيقى لمصر » . ولو أن الصراع القومى فى مصر لم يستمر وتزدد حدته لما كان جلاء ولما كانت تسوية ولما كان استقلال فعلى . ولما استطاعت مصر أن تقف ذلك الموقف الذى وقفته من العدوان البريطانى الأخير . فالنضال القومى فى مصر إذن كان (وما زال) مستمراً ، وكلنا يعلم ما كان لهذا النضال من صدى فى الدول المجاورة .

وفى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين كانت نكبة الانتداب الذى لم يقره العرب ، والذى خيب آمال المجاهدين فى استقلال بلادهم ، ودفعهم لمواصلة الجهاد والكفاح ضد ذلك النوع الجديد من الاستعمار الغربى المقنع فى صورة تنظيم دولى تتولى عصبة الأمم الإشراف عليه . وقد علق المؤرخ الإنجليزى « البروفسور جيب » على نظام الانتداب بقوله : « لقد أخذتا بريطانيا وفرنسا على عاتقهما المسئولية القانونية والأدبية لتوجيه ومساعدة الدول العربية فى تطورها وبنائها . ولكن الدول الغربية فشلت فى أن تتفهم مدى وقوة الحركة القومية العربية ، ومنذ البداية ساد سوء التفاهم والفشل واستحال التعاون بين العرب والغرب . لقد كانت سياسة الديمقراطيات الغربية فى الفترة بين الحربين تتسم بقصر النظر وعدم التعمق فى الحقائق مما أدى إلى فشلها فى الميدان الخارجى . وهذا النوع من الفشل وقصر النظر كان هو أيضاً المسير للعلاقات بين العرب والدول الغربية » .

تلك هى شهادة مؤرخ إنجليزى عرف باتساع ثقافته ومعلوماته عن شئون الشرق الأوسط ، إلا أن الأمر لم يكن مجرد قصر نظر أو سوء تفاهم

ولم يكن مقصوراً على مجرد تشكك العرب فى نوايا الدول الاستعمارية ، أو استيائهم من أن مصالحهم تخضع لأهواء السياسة المادية التى تتبعها الدول الاستعمارية . إن الأمر كان سلسلة من الوقائع السافرة ، من اضطهاد وإذلال وإخضاع وكبت ، وفظائع وجرائم ارتكبها المستعمرون وقواتهم للتنكيل بالشعب العربى بعد أن رفض ما فرض عليه من سياسة أملتها المصالح البريطانية والفرنسية . فهل كان المفروض أن يسكت العرب على كل هذا ، وأن يقضى على حركتهم القومية ويرضون بما يملى عليهم ؟ وهل كان التقسيم الذى فرضه مؤتمر الصلح بإيعاز فرنسا وبريطانيا وباتفاقهما متمشياً مع مبادئ الرئيس ولسن التى هتفت لها قلوب ملايين العرب ممن حاربوا الحكم العثمانى ؟

لقد كان للرئيس ولسن فكرة صائبة بخصوص استقلال سوريا بعد الحرب الأولى ، وقد نادى برأيه وطالب بالأخذ به . وحذر من عواقب الاستهتار بحقوق أهل سوريا ، ولكن إنجلترا وفرنسا كانتا قد عقدتا النية على تبادل الأسلاب طبقاً لمعاهدة سايكس — بيكو السرية التى فضحت الثورة البلشفية أمرها . بل إن إنجلترا وفرنسا تجاهلتا أيضاً التحذير الذى أدلى به لورد اللنبى حين قال « إن المسلمين عامة والعرب خاصة سوف يقاومون أشد المقاومة كل محاولة لتثبيت النفوذ الفرنسى فى سوريا » .

لم تكن المسألة فى نظر الاستعمار البريطانى الفرنسى مسألة وعود أو كلمة شرف أو حقوق مشروعة أو مبادئ تقرير مصير ، بل كانت مسألة مصالح مادية استعمارية أولا وآخراً ؛ وتحقيق تلك المصالح كان

لا بد وأن يتم على حساب التضحية بحقوق العرب . لقد كانت فرنسا تخشى قيام دولة مستقلة فى سوريا حتى لا يكون لهذا الاستقلال رد فعل أو صدى فى الأقطار العربية التى كانت خاضعة للنفوذ الاستعمارى الفرنسى فى شمال أفريقيا . ولذلك اتفقت الدولتان المستعمرتان على تشتيت شمل ولاية سوريا إلى أجزاء أربعة : لبنان ، واللاذقية ، ودولة سورية عاصمتها دمشق ، ثم الإسكندرونة . وكان الغرض من هذا التشتيت هو بث الدعوة إلى قوميات انفصالية ، وجعل الدولة السورية الجديدة ضعيفة من ناحية الإمكانيات والموارد ومغلقة جغرافياً حتى تسيطر فرنسا على تجارتها وحياتها الاقتصادية .

وأسرعت فرنسا إلى تنفيذ خطتها ، فأنذرت الملك فيصل بن الحسين بالانسحاب فوراً خلال أربع وعشرين ساعة (بعد أن كان قد أنشأ حكومة عربية تحت لوائه فى سوريا) وبثّت جنودها وعملاءها لقمع حركة الوطنيين والمجاهدين السوريين ، وهنا بدأت فترة جديدة فى كفاح سوريا القومى ضد قوى الاستعمار . وقد شهد التاريخ كيف أن فرنسا استعملت كل الوسائل الوحشية الممكنة لكبت روح الكفاح الوطنى السورى ، كما لجأ عملاء الاستعمار إلى فرض اللغة الفرنسية كلغة إجبارية فى المدارس السورية (كما كان الحال بالنسبة للإنجليزية فى مصر) ، وصودرت الصحافة الوطنية ، واعتقل الزعماء الوطنيون ، وأعدم الكثيرون من المجاهدين . . . إلى غير ذلك من أعمال القمع والتنكيل التى رن صداها فى جميع أنحاء العالم العربى الذى ظل ناقماً على الاستعمار الفرنسى حتى

اليوم . فليس من المبالغة إذن القول بأن الحركة القومية السورية التي استمرت ولم تنقطع في يوم من الأيام كانت جزءاً مكملاً لكفاح العرب المشترك ضد الاستعمار الغادر ؛ ولا من المبالغة القول بأن الشعب السوري ظل في حالة شبه ثورة غير منقطعة منذ ابتلائه بالانتداب الفرنسي حتى استقلال سوريا عام ١٩٤٥ . إن الذعر والفزع الذي حاول المستعمر الفرنسي بثه في قلوب الشعب السوري ، وأعمال القتل والتنكيل التي قام بها جنود الاستعمار ، وإلقاء القنابل أياماً متتالية على الآمنين من السكان دون ذنب أتوه اللهم إلاّ الإعراب عن شعورهم القومي . . . كل تلك الأعمال زادت الحركة القومية السورية حماساً ، وعلّمت العرب المجاورين لسوريا دروساً ، وكسبت للشعب السوري عطفاً وتأييداً من إخوانه في ربوع الشرق الأوسط . . . تلك كانت حلقة أخرى من تاريخ القومية العربية .

ولم يكن اكتئاب مجاهدي العراق في الحركة القومية العربية بأقل شأناً من جهود إخوانهم في الدول المجاورة . كانت إنجلترا قد استولت على العراق بعد زوال السلطة العثمانية ، وأنشأت فيه نظام حكم ضمت بمقتضاه العراق لحكومة الهند حتى تصبح بذلك إحدى « مستعمرات التاج البريطاني » . فكانت خدعة أخرى أضافتها إنجلترا إلى سجلها الأسود الحافل بنكث العهود التي كانت قطعتها للعرب خلال الحرب لكي تحثهم على الحرب في صفوفها ضد تركيا . فظنّ وطنيو العراق لهذا الخداع ، وعقدوا النية على الثورة ضد الاستعمار البريطاني ، وقامت الثورة العراقية الوطنية فعلاً في ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٠ ، وشملت معظم أنحاء البلاد حتى أقلقت الجيش البريطاني

المحتل بقواته ومعداته . لم تكن ثورة مكتملة التسليح والاستعداد ، ولكن القائمين بها كانوا ممتلئين وطنية وغيرة على حقوق بلادهم المغتصبة . أرادت إنجلترا للعراق الخروج من حكم تركي فاسد للدخول فى استعمار بريطانى سافر . فكان هذا كافياً لإشعال روح الحماس فى قلوب الوطنيين العراقيين الذين ناضلوا وكافحوا إلى درجة جعلت جريدة « التايمز » اللندنية تعلق قائلة : « ليس من الحكمة التمادى فى العداء ، فإننا لانريد أن يكون العراق مقبرة للإمبراطورية البريطانية كما كان مقبرة للإمبراطوريات القومية ! ! » .

وعند ما شعر ساسة الإنجليز بعزم الوطنيين فى العراق على استكمال استقلال بلادهم لجأوا مرة أخرى إلى الخداع ، فجاء تشرشل (وكان وقتئذ وزيراً للمستعمرات) إلى مؤتمر القاهرة فى مارس سنة ١٩٢١ ، وأوهم فيصل بأن إنجلترا سوف تقيمه ملكاً على دولة مستقلة فى العراق ؛ ولكن تشرشل عاد يراوغ فيما بعد ، ويدعى أن لا بد من عقد معاهدة بين إنجلترا والعراق لتحديد العلاقات بينهما ؛ كما أصرت الحكومة البريطانية قبل عقد تلك المعاهدة على أن يعترف العراق بالانتداب البريطانى خلافاً لما وعد به تشرشل من قيام حكومة عراقية مستقلة ذات سيادة . وأمام بطش الإنجليز وتحكمهم كقوة منتصرة فى مصائر الدول الصغيرة الضعيفة اضطر الملك فيصل الأول إلى قبول الشروط البريطانية ، ولكنه كان يعلم أن أمام العراق مرحلة طويلة من المقاومة الوطنية للتخلص من الاستعمار البريطانى . كان فيصل يعلم ذلك لأنه كان الرجل الذى حارب فى صفوف الجيش

ضد الاستبداد التركى ، والرجل الذى وقف يدافع عن حقوق العرب فى مؤتمر الصلح ، والرجل الذى عرف كيف يلهب حماس المواطنين فى ربوع العالم العربى وينادى بالتحرر والاستقلال . لقد رسم الملك فيصل الأول الخطوط الأولى للقومية العربية فى العراق ، ولكن الأقدار شاءت أن يوجد فى العراق فريق من ذوى المصالح الذاتية قام بتبديد التراث الذى خلفه الملك فيصل ، فناصر المستعمر البريطانى وهيأ له السبيل لتثبيت أقدامه والإطاحة بمصالح الشعب العراقى .

لقد شهد التاريخ كيف حاول الملك فيصل الراحل أن ينمى بين أفراد الشعب العراقى روح القومية العربية الحقة ، ولكن يد الاستعمار كانت أسبق من تلك الجهود ، فقد بثت بريطانيا عملاءها والموالين لها ، واستغلت ذوى المصالح الشخصية والإقطاعيين فى العراق لمساعدتها فى كبت الحركة الوطنية والإطاحة بقادتها . وقد استمر الصراع سجالا على مر السنين بين فريق الوطنيين المثقفين الذين نادوا بالإصلاح الاجتماعى والسياسى وبين فريق الرجعيين الذين يسعدهم ويطيب لهم بقاء الأمور على ما هى عليه . وكانت بريطانيا دائماً أبداً فى الجانب المؤيد للرجعية ، كما لجأت إلى بث الدسائس والمخاوف بدعايتها المسمومة لتوهم الشعب العراقى بأنه محط أطماع الدول العربية المجاورة ، وأن مصر تارة والمملكة السعودية تارة أخرى تريدان بسط نفوذهما على العراق للحد من هيبته واستقلاله . . ! !

ورغم تيار الدسائس هذا الذى دام سنين طويلة لم تخمد جذوة القومية العربية فى العراق ، ولم تستطع بريطانيا ولا عملاؤها أن تقضى على شعور

العداوة المستحكم ضدها . كما دلت على ذلك الأحداث المتتابعة التى كان من أبرزها ثورة رشيد على الجيلانى . والثورة التى قامت ضد معاهدة بيفن — جبر ، وأخيراً الثورة الجامحة ضد الحلف التركى العراقى البريطانى وضد سياسة نورى السعيد . وليس المجال فى مقال علمى كهذا التعرض لشخصية نورى السعيد والدور الذى لعبه فى تأييد الاستعمار البريطانى وتثبيت أركانه ، بيد أنه لا يسعنا إلا أن نسوق هنا « شهادتين » إحداهما من أبواق إنجلترا ، والأخرى خطها نورى السعيد بيده . والشهادة الأولى هى أن ساسة الإنجليز وكتابهم قد خلعوا على نورى السعيد لقب « الصديق الأول للإمبراطورية البريطانية فى الشرق العربى » ، وليست العبرة بمجرد اللقب وإنما العبرة بما ينطوى عليه من معنى دفين !

أما الشهادة الثانية فقد جاءت عن لسان نورى السعيد حين أدلى بتصريح لجريدة التايمز اللندنية إبان الحرب العالمية الثانية جاء فيه : « إن الدعاية البريطانية فى العالم العربى لم تصل بعد إلى عامة الشعب ، وعلى إنجلترا أن توسع نطاق دعايتها وتزيد من قوتها حتى تبلغ أغراضها من التأثير على أفراد الشعب العربى والحصول على تأييده للمصالح البريطانية ، وتقضى بذلك على الدعاية المحورية الضارة ! ! . . .

إنهما شهادتان لا تحتاجان إلى تعليق . . . ! والحقيقة التى لا جدال فيها هى أن العشرات أو المئات من الموالين لبريطانيا فى العراق أو فى غير العراق لن يستطيعوا الرجوع بالتاريخ إلى الوراء ، ولا أن يقفوا فى وجه النمو والتطور الطبيعى للحركة القومية العراقية — وما هذه الأخيرة إلا ركناً هاماً

مكملاً للقومية العربية . إن وسائل الكبت المؤقت واضطهاد الوطنيين واعتقال المجاهدين لا يمكن أن تقف حائلا دون ظاهرة ديناميكية ؛ فلا بد أن يأتى اليوم الذى تصبح فيه « الدولة القومية العربية » حقيقة سياسية قائمة ، ولن تكتمل هذه الدولة من غير العراق ، وما العراق إلا جزءاً حيوياً من الأمة العربية .

وفى بقية الدول العربية التى وضعت قسراً تحت نظام الانتداب لم تكن الحركات القومية بأقل شأناً ولو أن المظهر الخارجى لتلك الحركات يختلف عن مثيلاتها فى العراق ومصر وسوريا . ففى فلسطين — كما هو معروف للجميع — كان على العرب أن يقاوموا خطراً مزدوجاً ؛ كان عليهم أن يقاوموا الأساليب الاستعمارية البريطانية من ناحية ، كما كان عليهم أن يقاوموا الزحف الصهيونى الذى كان يتم بمساندة بريطانيا وتأييدها . وليس تاريخ جهاد العرب فى فلسطين بحاجة إلى تعريف ؛ وليس هناك عربياً واحداً فى قطر من الأقطار لا يعترف بأن قضية فلسطين العربية هى قضيته وقضية بلاده ، وأن واجبه القومى يملى عليه أن يبذل قصارى جهوده لنصرة عرب فلسطين إخوانه فى العروبة .

أما فى لبنان فقد كان هدف الاستعمار الفرنسى هو القضاء الكلى على الشخصية العربية لتلك البلاد ، ومن ثم السير بها نحو تيار جارف ينتهى « بابتلاعها » كمستعمرة فرنسية ممثلة فى الاتحاد الفرنسى ، شأنها شأن المستعمرات الفرنسية الأخرى التى خدعت فرنسا شعوبها على النحو المألوف . لقد دأب الاستعمار الفرنسى على إنشاء المعاهد والمدارس الفرنسية فى لبنان

ليقضي تدريجياً على اللغة العربية وبالتالي على القومية العربية وشخصية لبنان العربية . وكان الاستعمار الفرنسي يهدف من وراء إحلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة العربية إلى خلق طائفة من اللبنانيين الذين تعتمد عليهم فرنسا في الوقوف أمام تيار القومية العربية المتأججة في الداخل والزاحفة من الخارج . ومما يؤسف له أن تلك السياسة الاستعمارية الفرنسية قد صادفت نجاحاً لدى بعض ضعاف النفوس ممن فضلوا تحقيق مصالحهم الذاتية على الاتجاه نحو الواجب الوطني ؛ فاستغلتهم فرنسا لتجعل منهم فئة تعطف على الاستعمار الفرنسي . . ويالله العجب ! وتنادي بالابتعاد عن تيار القومية العربية .

حقاً إنه لمن العجيب أن ينادي بعض المواطنين في لبنان بالابتعاد عن الوحدة العربية والقومية العربية والارتماء في أحضان فرنسا . ومن العجيب أن يتذرع بعض هؤلاء بحجة اختلاف الدين أو المذهب لكي يبرروا ميولهم الانفصالية . إن الوطنية لا تعترف بالفوارق الدينية في عصرنا هذا ؛ والقومية اللبنانية بحكم المصالح الاقتصادية والسياسية وبحكم الروابط الثقافية والروحية لا بد وأن تتخذ وجهة طبيعية عربية ؛ إذ أن أي اتجاه خلاف ذلك لا بد وأن يكون ضد طبيعة البلاد وطبيعة أهلها وضد مصالحهم في الأمد الطويل. ولا يمكن لإنسان أن يتصور لبنان وقد تحول إلى مستعمرة فرنسية (أو حتى دولة مستقلة مرتبطة بفرنسا أو أية دولة أجنبية أخرى) وسط شقيقاته الدول العربية الأخرى .

ولعل الأعجب من هذا ما سمعناه أخيراً بعد العدوان الفرنسي على مصر

من أن فريقاً من اللبنانيين عارض قطع العلاقات بين لبنان وفرنسا ، مشيراً إلى أن فرنسا هى الأم الرءوم وليس للبنان أن ينقطع عنها ! ! إن معرفتنا للأم هى ذلك الشخص ذو القلب العطوف التى ترضع صغارها وتسهر على تربيتهم ورعايتهم . . . أما تلك التى « تأكل صغارها وتمتص دماءهم » فى قواميس اللغة أسماء وصفات توصف بها غير كلمة الأم الرءوم . . . وعلى أى الحالات ، إن فى لبنان من زعماء الوطنية ورافعى لواء القومية العربية ألوفاً سوف تعلو كلمتها فى المستقبل كما علت فى الماضى ، ولن يغير وجود أقلية مضللة من طبيعة القومية اللبنانية كجزء حيوى من القومية العربية ، ولا من طبيعة لبنان كعضو عامل فى الكيان العربى .

وإذا تكلمنا عن بقية الدول العربية الأخرى فسوف نجدها جميعاً وقد شاهدت قيام حركات قومية مستمرة ضد الاستعمار وأساليب الاستعمار . فى الأردن مثلا كانت السيطرة البريطانية قد لجأت إلى العنف والقوة العسكرية المرابطة فى قلب ذلك البلد الصغير لإقصاء الزعماء القوميين — وذلك منذ إنشاء إمارة شرق الأردن تحت الانتداب البريطانى . وكانت سياسة المعونة المالية البريطانية للأردن سلاحاً استعمله المستعمر لخنق الروح القومية فى البلاد مهدداً دائماً أبداً بقطع المعونة وإهلاك الشعب جوعاً إذا ما قامت له قائمة أو أبدى استياء من التصرفات الاستعمارية البريطانية . وقد ساعد على هذا الكبت والضغط وجود «جلوب» ومساعديه ممن كانوا يتحكمون فى الجيش الأردنى ، ويحاولون تسميم أفكار الشعب بشتى ألوان الدعاية الكاذبة ، مهددين تارة ومتوعدين أخرى . إلا أن الشعب الأردنى

الباسل تمكن مع مرور الأيام من تأكيد رغبته القومية ، وقام متحدياً بريطانياً ومتحدياً وعيدها وتهديدها ، فطرد جلوب وأذنابه ، وقضى على ألاعيب عملاء الاستعمار ، وأثبت أنه شريان رئيسى فى جسم الأمة العربية لا ينفصل عنه ، بل يغذى القومية العربية بدم الحماس والتضحية فى سبيل المصلحة العليا للوطن العربى .

وإن كفاح الشعب العربى فى شمال أفريقيا وغيرها من الأقطار العربية ما زال ماثلا أمامنا ، مؤكداً أن الحركة القومية العربية سلسلة واحدة مترابطة الحلقات من الكفاح المستمر ضد العدو المشترك وهو الاستعمار . لقد كافح الشعب الليبى ضد الاستعمار الإيطالى ، وكافح شعب تونس ومراكش والجزائر كفاحاً مستميتاً دون انقطاع رغم وحشية الاستعمار الفرنسى وجحافل جيوشه . . . ولا يفتأ الشعب العربى فى كل مكان يناضل من أجل حقوقه التى سلبها منه الاستعمار ، وكل عربى فى كل مكان لا يترك فرصة إلا أعرب فيها عن شعور الأخوة والعطف على إخوانه فى الأقطار العربية المناضلة . . . إنها قضية واحدة . . . قضية القومية العربية فى كفاحها ضد الاستعمار . وإذا كانت الأساليب الاستعمارية قد نجحت فى بعض أنحاء الوطن العربى فى أن تكمم الأفواه وتبث الأكاذيب ، فلن تكون نتيجة ذلك الضغط إلا إزدياد الحماس القومى اشتعالا ، وكل اعتقال لزعيم ، أو سجن لوطنى ، أو تنكيل بمجاهد إنما يعجل بمصير الاستعمار إلى الزوال . . . وعجلة التاريخ لن تدور إلى الوراء مهما سخرت لذلك الدول الاستعمارية من قوى وعتاد .

تلك إذن هى المظاهر الأساسية للقومية العربية ، التى كانت تدفعها الرغبة المشتركة فى جميع الأقطار العربية لمقاومة الاستعمار أيا كان نوعه — احتلال عسكرى ، أو انتداب ، أو استعمار اقتصادى وثقافى ، أو فرض سيادة أجنبية عن طريق معاهدات غير متكافئة . وإن كان تفتيت العالم العربى إلى دول منفصلة سياسياً قد ساعد على ظهور حركات قومية محلية ، إلا أن تلك الحركات لم تكن فى يوم من الأيام لتتعارض مع القومية العربية ، ولم يكن نمو الشعور القومى المحلى فى أى وقت متعارضاً مع الشعور القومى العربى بل على العكس من ذلك زاده حدة وفاعلية . وقد دلت سلسلة كفاح العرب القومى ضد الاستعمار وفى سبيل الحصول على استقلالهم أن الشعور بالتضامن والعطف بين جميع الدول العربية كان دائماً أبداً يكوّن عاطفة واحدة وكتلة متحدة فى علاقته مع الاستعمار الغربى ؛ فلم يكن هناك عربيان يختلفان فى الرأى بالنسبة لمشكلة فلسطين مثلا ، أو مشكلة استقلال تونس ، أو جلاء المحتل عن مصر .

وإذا قلنا إن التفتيت السياسى للعالم العربى قد كان من الدوافع الأولى لازدياد حماس القومية العربية ، فإننا نسارع إلى القول بأن الدول الاستعمارية قد ألحقت بالبلاد العربية أبلغ الأضرار بغية القضاء على الروح القومية فيها . فالتقسيم فى حد ذاته أوجد بين الأقطار العربية حواجز إدارية واقتصادية التى وإن كانت من ضروريات الوضع الدولى بين الدول المستقلة ، إلا أنها كانت موانع لم يعرفها العالم العربى من قبل . واضطرت الدول العربية الأخذ بها طيلة السنين الماضية إلى أن دفعتها

روح التطور نحو الوحدة التامة إلى التفكير فى إزالتها والعودة إلى اتحاد عربى لا تفصل بينه تلك الحدود غير الطبيعية . فلم يكن بين الأقاليم أو الولايات العربية أيام الحكم العثمانى حواجز جمركية تعوق التبادل التجارى ، ولم تكن بينها إجراءات الجوازات والجنسية ، ولم تكن تعرف البيروقراطية ولا نظم المخابرات الإنجليزية والجاسوسية الفرنسية ؛ ولم يكن بها ذلك النظام البيروقراطى العتيق الذى أوجده المستعمرون ليهيئ لهم تغلغل نفوذهم فى البلاد العربية بدعوى تحسين النظم الإدارية والحياة العامة فيها . كل هذه الإجراءات التى كانت من نتائج التقسيم المفروض على العالم العربى — والتى عنى الاستعمار بإبرازها للتمادى فى التفرقة بين الدول العربية — كانت من العوامل التى زادت فى صعوبة العودة نحو الاتحاد التام بين دول الأمة العربية .

بيد أن أكثر ألاعيب الاستعمار وبالا على الأمة العربية كان التعمد فى إهمال التعليم . فقد كان المستعمر يرى أن تعليم الشعب واتساع ثقافته من العوامل الأولى التى تساعد على انتشار روح القومية ؛ فكانت سياسة السلطات البريطانية والفرنسية فى الدول التى بثت نفوذها فيها هى إهمال التعليم بوجه عام ، والقضاء على التعليم الوطنى ، ونشر الثقافة الاستعمارية فى المدارس الأجنبية . أليس من الغريب أن السنين الطوال من الإدارة البريطانية فى العراق لم تعمل على خفض نسبة الأمية عن ٩٥٪ ؟ وماذا كان نصيب مصر بعد خمسين عاماً من الإدارة البريطانية إلا أن ظل ٩٠ ٪ من أبناء الشعب المصرى أميين ؟ ولم تكن الدول العربية

الأخرى بأوفر حظاً ؛ فبينما ظلت نسبة الأمية فى سوريا مثلا (إلى حين زوال الحكم الفرنسى) حوالى ٨٠ ٪ ، نجد أن بعض دول شمال أفريقيا تعانى من نفس المصير حتى الآن ، كما أن فلسطين العربية والأردن وغيرها قاست أيضاً على مدى السنين من نقص التعليم العام .

ومن ناحية أخرى كان لانتشار التعاليم والمذاهب التقدميه والديمقراطية فى أوروبا أثر واضح فى النضوج السياسى للمواطنين فى الدول العربية . فإدخال نظم الحقوق السياسية والمدنية ونظم الانتخابات والتمثيل البرلمانى ، وغير ذلك من نظم الحياة العامة المستمدة من فلسفة الغرب ، كانت كلها عوامل فعالة لتنوير أذهان الأفراد وزيادة وعيهم السياسى . فلا شك فى أن تطبيق نظم الحكم الديمقراطية كما عرّفها فلاسفة المذاهب السياسية ونادى بها أحرار الكتاب فى أوروبا ، كانت عاملا أساسياً فى تعليم الفرد حقوقه وواجباته — ماله وما عليه ، ما هو مغتصب ومحروم منه وما يجب أن يكافح ويضحى من أجله . كل هذا ساعد على ازدياد الوعى القومى لدى الأفراد ، وأيقظ فيهم الروح الوطنية ، وجعلهم ينادون بالنداء الحديث نداء السيادة القومية تامة غير منقوصة ، والتمسك بحقوق السيادة ومناهضة كل محاولة للانتقاص منها — وكل هذه كنايات عن القومية .

ولنتكلم الآن عن نتيجة أخرى للتقسيم الذى أقحمت فيه الأمة العربية بضغط من الاستعمار ، وهذه النتيجة هى تعدد الجنسيات (بمعناها القانونى والسياسى) فى العالم العربى . فقد كان من أغراض

الاستعمار خلق « جنسيات سياسية » مختلفة فى ربوع العالم العربى وذلك بتطبيق الناحية الإدارية لنظام الانتداب . ولعله من المؤسف حقاً أن الاستعمار نجح فى إيجاد هذا التباين ، وأوجد عنصراً دخيلا للتفرقة بين أفراد الأمة العربية بأن جعل من الحدود السياسية حدوداً تفصل بين الأخ وأخيه لمجرد وجودهما فى أماكن تخضع لإدارات أو حكومات مختلفة . لقد كان العرب فى ظل الإسلام لا يعرفون أساساً لتعدد الجنسيات بمعناها القانونى والسياسى الحديث ، بل كانت قوميتهم (أو جنسيتهم) محكومة بالشريعة وبالمبادئ الإنسانية التى أوجدتها تعاليم الإسلام ؛ وكان فى الشريعة الإسلامية ما يكفى لتنظيم الناحية القانونية فى الحياة الاجتماعية والعامة للأفراد . وكانت هذه حالة شبيهة بما كان عليه رعايا الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ظل المسيحية — علماً بأن الإسلام نظام اجتماعى متكامل وليس بمجرد عقيدة . فالشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى فى لغة علم الاجتماع تجمع بين فكرة القانون وفكرة الدين فى الدولة الحديثة . ولذلك كانت الجنسية أو القومية فى العالم الإسلامى مرتبطة تمام الارتباط بما نصت عليه الشريعة الإسلامية . فلم تكن التعاليم الإسلامية لتعرف أو تعترف بالفوارق السياسية والعاطفية التى تحرك القومية المحلية كما شاهدناها فى القرن العشرين ؛ ولذا لم يكن فى الدولة الإسلامية إلا قومية واحدة (أو بالمعنى الحديث جنسية سياسية واحدة) .

وحتى فى ظل الإمبراطورية العثمانية . كان من المعترف به

أن للعرب « جنسية سياسية » واحدة هى الجنسية (أو الرعية) العثمانية ، وليس ذلك من الناحية القانونية فقط — أى كون العرب خاضعون لسلطة واحدة هى السلطة التركية — وإنما لأن العثمانيين أنفسهم دأبوا على استغلال فكرة « القومية الموحدة » فى الإسلام استغلالا سيكولوجيا وسياسيا لتثبيت أركان حكمهم . إلا أن هذا لا ينسينا أنه منذ القرن الحادى عشر بدأت تنتشر فى الإمبراطورية العربية بين آونة وأخرى تيارات « انفصالية » — أى انفصال عن سلطة الخلافة . وكانت كلها تيارات تدفعها المصالح الفردية لولاة الأقاليم ، كما كان يزيد من حدتها نزعة « الأسرة الحاكمة » التى خلفت لنا ما نعرفه من تاريخ « الدول » الإسلامية كالعباسية والأموية والفاطمية وغيرها .

غير أن تاريخ تلك القرون لم يغير من طبيعة الشعور القومى العربى ، ولم يكن التباين بين إقليم وآخر (تبعاً لسلطة الدولة الحاكمة) ليصل إلى حد التعارض مع الروابط التقليدية والروحية ووحدة المصالح التى كانت تجمع بين سكان سوريا ومصر والعراق والجزيرة العربية فى ظل الإسلام . ولكن التقسيم السياسى الذى أوجده الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى ، والإمعان فى الفصل (بواسطة حدود غير طبيعية) بين إقليم عربى وآخر ، وتكوين قوميات متباينة فى كل إقليم ، كل هذا أدخله المستعمرون بغية القضاء على وحدة الأمة العربية ، وخلق عدد من الدويلات الصغيرة التى يسهل على الاستعمار حكمها والتلاعب بها والسعى للتفرقة بينها ، تماماً كما يفرق دعاة الشر بين الأخ وأخيه فى الأسرة الواحدة ، وبين

العائلة والعائلة فى القبيلة الواحدة .

وكان من آثار التقسيم السياسى والإدارى للعالم العربى أن تعددت قوانين الجنسية ، وأصبحت وضعية مملاة من الخارج بعد أن كانت خاضعة للشريعة الإسلامية . وكان أن تبعت « الجنسيات » (التى وضعت لتحديدها القوانين المتباينة) الحدود السياسية التى رسمها الاستعمار . وكانت المملكة العربية السعودية هى الدولة الوحيدة التى أبقت على نصوص الشريعة الإسلامية فى قانون الجنسية الحجازية الذى صدر عام ١٩٢٦ حيث نصت المادة الرابعة منه على جواز إعطاء الجنسية لكل مسلم يقيم فى الحجاز ثلاث سنوات ، كما نصت المادة الخامسة من نفس القانون على حق الحكومة فى إعطاء الجنسية لكل مسلم ترى أنها قد تستفيد من خدماته .

أما فى الأقطار التى وضعت تحت الانتداب فقد كانت القوانين التى تفنن فى صياغتها المستعمرون تنم عن سوء النية والتعمد فى محو كل أثر من آثار القومية العربية . فقد عمدت فرنسا فى سوريا ولبنان إلى تطبيق قانون للجنسية لا يتفق بأية حال من الأحوال مع القواعد والأسس العنصرية أو اللغوية أو الدينية التى اتبعت عند تكوين الدول القومية الحديثة . فبينما نرى أن قانون الجنسية السورية الذى فرضه الفرنسيون أعطى الجنسية السورية لقبائل الدروز ، نجده قد أوجد جنسية مختلفة منفصلة لعرب لبنان . وكانت حجة فرنسا فى ذلك أن سكان جبل لبنان يعتبرون من حيث التعليم والثقافة والنضوج السياسى فى مرتبة تختلف

عن إخوانهم فى سوريا ، ولذلك فإنهم — فى رأى فرنسا — أهل لكى يكونوا وحدة سياسية منفصلة بعد ضم جزء من سوريا إليهم . هكذا أوجد الاستعمار الفرنسى قومية لبنانية انفصالية ، وهكذا أوعز الاستعمار الفرنسى إلى سكان لبنان أن مستقبلهم ينحصر فى إيجاد كيان سياسى خاص بهم ، وأنهم يمتازون عن غيرهم من العرب . قال الاستعمار الفرنسى ذلك ولم يقل إن لبنان بحدوده السياسية الضيقة لا يكون دولة مكتفية الحياة من الناحيتين العملية والاقتصادية وأنه جزء متكامل جغرافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا مع سوريا وبقية الأقطار العربية المجاورة .

كذلك اتبعت إنجلترا نفس الأسلوب الاستعمارى عندما شرعت فى خلق قوميات أو جنسيات سياسية متباينة فى كل من فلسطين والعراق وشرق الأردن — وكانت كلها خاضعة للانتداب البريطانى . ولنذكر هنا مثالاً واحداً يكفى لإظهار التدبير المتعمد للقضاء على عروبة الأفراد فى العالم العربى . لقد كانت بريطانيا تعلم أن قانون الجنسية الذى فرضته على أهالى إقليم شرق الأردن سوف يلاقى كثيراً من المعارضة ؛ لذلك أوجدت لنفسها مخرجاً شاذًّا نصت عليه المادة الثالثة من القانون المذكور إذ جاء فيها : « كل شخص حصل على الجنسية الأردنية ولكنه يختلف من حيث العنصر عن بقية سكان شرق الأردن . . . ويبدى رغبته فى أن يحصل على جنسية دولة من الدول التى يغلب فيها العنصر الذى ينتمى إليه ، سيعتبر بعد موافقة الدولة المذكورة كأنه تخلى عن الجنسية الأردنية . . . »

ويضيق بنا المقام هنا للتعقيب على هذا النص الشاذ وعلى العديد من النصوص والمواد المماثلة التى كلها تدل على دور الاستعمار فى إيجاد تفرقة غير طبيعية بين أفراد الأمة العربية . على أن ما نعرفه عن ظروف إنشاء تلك « الجنسيات » و « القوميات » والقوانين التى وضعت نصوصها فى « الكاى دورسى » وفى « هوايت هول » إنما تكشف لنا عن نقط جديرة بالملاحظة . فمن الحقائق الثابتة أن العرب لم يعترفوا من جانبهم بنظام الانتداب (وإن كانوا قد قبلوه مرغمين) ؛ ولكنهم أمام ضغط الاستعمار قبلوا التقسيم والقوميات المنفصلة التى أوجدها هذا النظام .

وحتى إذا اعتبرنا أن العرب كانوا يعتبرون الانتداب كمرحلة انتقال تتطلبت كفاحهم المستمر للحصول على استقلالهم التام ، حتى إذا سلمنا بذلك — وهو الواقع — فهل من الجائز القول بأن تلك الحقبة القصيرة من الزمن التى شاهدت نشوء القوميات المحلية الجديدة وكفاح المنادين بها ، كانت كافية لخلق « نزعة » محلية انفصالية تتعارض مع الشعور القومى العربى ؟ هل من الصواب الاعتقاد بأن عشرات السنوات من حياة المواطنين فى دولة أوجدت لها حدود سياسية جديدة كفيلة بأن توجد فى فى نفوسهم وأذهانهم ذلك الشعور القومى الانعزالى الذى يجعلهم يتناسون أو يبتعدون عن شعورهم القومى العربى ؟ إذا كان الأمر كذلك فقد نجح الاستعمار فى مهمته ، ولا يكفى القول بأن الاستعمار لم ينجح ، بل يجب أن يكون الدليل إجابة صريحة بأن الوعى القومى المحلى يكمل ولا ينفصل عن الوعى القومى العربى — وكل قائل خلاف ذلك إنما يؤيد الاستعمار وأهدافه .

فلا العراقى ولا اللبنانى ولا الأردنى ولا أى مواطن عربى يمكنه التحيز لقوميته المحلية على حساب قوميته العربية . وبديهى أن مثل هذا الاستنتاج يثير الكثير من النظريات السياسية والاجتماعية كالعزة القومية ، والتربية الوطنية ، والولاء القومى . . . وجميع العوامل الأخرى التى من شأنها أن تحرك الشعور الوطنى المحلى على حساب الشعور القومى العربى .

ولكننا نرد على ذلك بقولنا إن العوامل التى تحرك الشعور القومى العربى كثيرة هى الأخرى : فوحدة المشاعر والأمانى واللغة والحياة الاجتماعية والثقافة ، بالإضافة إلى المصالح الاقتصادية والسياسية ، كلها تعتبر مادة غزيرة لتغذية الشعور القومى العربى وتثقيف المواطن العربى ثقافة قومية خالصة . والنتيجة الطبيعية لنمو الشعور القومى فى العالم العربى هى أن يتولد لدى الأفراد فى « دولهم » المختلفة شعور قومى عربى يجب شعورهم القومى المحلى ، ويتطور هذا الشعور فيصبح عقيدة وإيماناً ، ثم تدفع هذه العقيدة الدول المنفصلة إلى الاتحاد التام فتكون دولة قومية عربية .

وحتمية هذه النتيجة المستقبلة ظاهرة من طبيعة الأمور . فالقومية المحلية تزداد رسوخاً وتأصلا . إما بالثقافة والوعى القومى والتربية الوطنية ، وإما بدافع المقاومة لقومية أخرى أو خطر خارجى ، أو بالعاملين معاً . أما عن العامل الأول ، فمن الواضح أن ليس ثمة حكومة عربية تضع برامجها التعليمية وتبنى حياة مواطنيها الثقافية على أساس ينسيهم قوميتهم العربية أو واجبهم نحو الأمة العربية . بل على العكس من ذلك ، فقد

شاهدنا جهود جميع حكومات الدول العربية فى نشر الوعى القومى العربى بين الأفراد ، كما شاهدنا كيف أن دساتير بعض الدول العربية قد نصت صراحة على أنها جزء حيوى من الأمة العربية . وأما عن عامل المقاومة لخطر خارجى أو قومية خارجية فليس من المعقول أن نتصور تطور القومية المحلية الضيقة فى دولة من الدول العربية إلى درجة تتعارض مع القومية العربية أو الشعور نحو الأمة العربية .

وإذ نؤكد هذه الحقيقة المسلم بها فإننا نتعمد تجاهل الخلافات الظاهرية بين بعض الحكومات ، وما قد يبدو من سوء تصرف أو خطأ سياسى من جانب زعماء أو سياسى بعض الدول العربية . ذلك لأننا نتحدث هنا عن مصائر الملايين وعن مصالح شعب بأكمله . وسيأتى حتما ذلك اليوم فى جميع أنحاء الأمة العربية الذى تكون فيه الكلمة العليا للملايين من أفراد الشعب ؛ ومصالح الشعب ومطالبه ستكون هى القوة الديناميكية المحركة للقومية العربية ، أما كلمات الأفراد وأصحاب المصالح الفردية والعناصر الأتوقراطية فمصيرها جميعاً إلى الزوال .

خلاصة ما تقدم إذن تنحصر فى أن دول العالم العربى قد مرت فى مرحلة تطورية نمت فيها روح القومية الحديثة ، وبحكم الظروف كانت تلك الحركات القومية ذات صبغة محلية ، تعنى بالشخصية الذاتية للدول العربية دون أى تعارض مع القومية العربية وفكرة الوطن العربى والأمة العربية . وبعد أن تستكمل كل الدول العربية شخصياتها المستقلة وترسى آخر حجر من أحجار قوميتها وسيادتها — أى بعد أن يؤدى الواجب

القومى بكامله نحو الوطن المحلى — لا بد أن يتجه المجهود الجماعى للدول العربية إلى جعل القومية العربية حقيقة واقعة بالفعل لا بمجرد القول والشعور . لا بد حينئذ أن تعود الوحدة العربية الحقيقية وتصبح الأمة العربية دولة قومية عربية .

وحين يصل بنا التحليل السياسى إلى ذلك النوع من الاستنتاج نجد أنفسنا أمام مشكلة نظرية أخرى وهى « تضارب الولاء » . قد يقال إنه بمرور الزمن سوف تصبح القوميات المحلية فى الدول العربية من الرسوخ والتأصل فى مشاعر الأفراد بحيث يصعب معها التفكير فى طرحها جانباً أو تضحيتها والاندماج فى تيار القومية العربية الجامعة ، أو على الأقل سيكون نمو القوميات المحلية على مر الزمن عاملا من العوامل التى تحبط من حمية الشعور القومى العربى . إن مثل هذا القول على ما فيه من احتمالات صحيحة يتنافى المصالح الحيوية الاقتصادية والسياسية . فإن تكوين الاتحاد العربى وتحقيق الهدف الأسمى — وهو الدولة القومية العربية — لن يتم استناداً إلى الروابط العاطفية أو الأدبية الروحية ، بل سيكون مدفوعاً بالمصالح الاقتصادية والسياسية التى لا مناص من تحقيقها إلا بالاتحاد الإيجابى بين الدول العربية .

ولعل الاتحاد العربى لم يعد ذلك الحلم البعيد المنال كما كان يظن المتشائمون والمغرضون ، فقد دلت الأحداث الأخيرة على أن بعض الدول العربية قد بدأت فعلا فى وضع الخطوط الرئيسية لتحقيق مشروع اتحاد عربى . ولا شك أن مثل هذا الاتحاد سوف يثير فى أذهان الكثيرين

فكرة ازدواج الولاء وصعوبة التضحية « بالسيادة المحلية » و « القومية الذاتية » . فيقول الدارسون لشئون السياسة الدولية إن من الصعوبات الكبرى فى تكوين اتحادات بين دول قومية مستقلة رغبة أفراد كل دولة فى الاحتفاظ بطابعهم الخاص ورفضهم الاندماج أو الخضوع لتقاليد وعادات وثقافات دولة أو دول أخرى من الراغبة فى الاتحاد . ويؤكد أصحاب هذا الرأى ، أن أفراد دولة معينة فى اتحاد فدرالى يصعب عليهم أن يشعروا بعاطفة نحو أرض أو وطن دولة أخرى ، وأن إيجاد أو تولّد مثل هذا الشعور والولاء يتطلب نبذ القومية الضيقة (أى المحلية) وتجاهل الشعور المتوارث وهو الولاء للوطن الصغير قبل الاندماج فى « الوطن الفدرالى » .

على أنه ليس من المغالاة فى التفاؤل القول بأن مثل تلك الصعوبات لن تتواجد فى اتحاد عربى ، وإن وجدت فإنها ستكون ذات طابع يسهل التغلب عليه ، ولن يكون من طبيعة الاتحاد الفدرالى العربى مطالبة الفرد بنبذ ولائه لحكومته المحلية ولالتقاليده المتوارثة ، ولا أن يندمج فيما هو غريب عليه . وإننا نعلم أن التقاليد الراسخة إنما هى تراث ينطبع على الأفراد خلال سنين — بل وقرون — من العيش الجماعى المشترك . ولن يقول باحث مدقق إن الدول العربية الحديثة العهد بالتكوين السياسى قد أورثت أفرادها من التقاليد والعادات والمشاعر ما هو دخيل على العروبة أو يتعارض مع فكرة الدولة القومية العربية .

ولعلنا نتعرض هنا إلى ما جاء عن لسان بعض الكتاب المغرضين

والمتشائمين من أن التباين فى الأوضاع بين الدول العربية يكاد يجعل اتحادها مستحيلا . إن مثل هؤلاء يخلط بين الفوارق فى التقدم الاجتماعى (وهذه ظاهرة واضحة فى العالم العربى اليوم) وبين الفوارق الجوهرية فى الحياة الاجتماعية والثقافية التى تميز الدول الأوروبية مثلا بعضها عن البعض الآخر . فليس هناك اختلاف فى جوهر الحياة الاجتماعية والثقافية ولا فى الشعور القومى العربى بين مختلف الدول العربية . وإن سلمنا بوجود فوارق بين الطبقات الاجتماعية المتباينة فى ربوع العالم العربى — بين البدوى والحضرى مثلاً . أو بين سكان الريف وسكان المدن — إذا سلمنا بوجود مثل هذه الفوارق فلعنا نعلم أيضاً أن التقدم الاقتصادى والثقافى والاجتماعى السريع من شأنه أن يزيل تلك الفوارق ويمحى آثارها . وحسبنا ما طرأ على حياة الجماعات القبلية فى الجزيرة العربية أو الكويت أو البحرين من تقدم وارتقاء كنتيجة حتمية للتقدم الاقتصادى والمادى لتلك المناطق وخروجها من العزلة النسبية وتيسير اتصالها بالعالم الخارجى .

فالاتحاد العربى سيكون من نتائجه ومقوماته تبادل التعاون الثقافى والفنى والاقتصادى بين الدول العربية ، فتساعد المتقدمة منها من لم تحظ بقسط وافر من التقدم ، وسوف تمحى الفوارق ويزول التباين فى مستوى الرقى الاجتماعى — هذا مع التسليم المنطقى بأن الدول المتقدمة لن تقف جامدة راكدة حتى تلحقها أخواتها . سوف يتم كل هذا دون المساس بالطابع القومى العربى والعادات والتقاليد السليمة ، ولن يكون هناك تعرض لأركان المجتمع ومقوماته وأسس تكوينه — فالدول

العربية تسعى جميعها إلى التقدم وليس معنى التقدم الأخذ بكل ما هو موجود فى حضارات المجتمعات الغربية إلى الدرجة التى تضر بالتراث القومى العربى .

فى الاتحاد العربى إذن لن توجد ثمة فكرة إقحام جماعة أو فريق من الأمة العربية لثقافة أو عادات فريق آخر غريب عنهم ، ولن تكون هناك ثمة رغبة فى معارضة الاتحاد من جانب الأفراد طالما أنهم لن يضحوا بتقاليدهم ومشاعرهم وعواطفهم القومية . بيد أن الاتحاد العربى — لكى يكون حقيقة واقعة — لا بد وأن يقوم على فكرة وهدف لحياة المجموعة المكونة له وهى مجموعة الأمة العربية . فإذا لم يشعر الأفراد أن الاتحاد العربى يقوم من أجل هدف يعتزون به ويحيون من أجله ويشتركون فى تحقيقه ، فلن يكون هذا الاتحاد أكثر من مجرد معاهدة أو تعاقد بين مجموعة من الدول ، وسيكون مصيره كمصير جميع المعاهدات التى تقوم لخدمة غرض مؤقت وتنتهى بانتهائه أو قبل تحقيقه .

وهنا أيضاً نجد أنفسنا من المتفائلين ؛ فلو سلمنا بأن الدول العربية ستطرح جانباً ما بين بعضها والبعض الآخر من أحقاد أو خلافات « أسرية » ، وإذا سلمنا أنها تيقظت لأساليب الاستعمار ودسائسه ، وقضت على الخلافات الديماجوجية فيما بينها ، إذا سلمنا بأن تحقق كل هذا ، فأى قضية ستكون أقرب إلى قلوب الشعب العربى من استعادة مجده وعزته ، وتأكيد وجوده بين دول العالم ، وإبراز الوطن العربى كقوة وثابة فى ميدان السياسة الدولية تساهم فى بناء العالم وتقدمه وسعادة شعوبه ؟ وأى عربى هذا الذى سيتردد فى حمل لواء القومية العربية للدفاع عن

مصلحة وطنه العربى وحفظ كيانه ؟ .

هذا من ناحية الولاء المعنوى أو الروحى ، أما من ناحية « الولاء السياسى » فقد يتساءل المرء : كيف يمكن للأفراد فى الدول العربية أن يتناسوا ولاءهم للدولة ممثلة فى حكومتهم أو أسرتهم المالكة ؟ وهل يحتمل — بمعنى آخر — أن يتنازل الأفراد فى دولة عربية عن بعض حقوق دولتهم وسيادتها فى سبيل اتحاد عربى ، وبخاصة وقد تأصل الشعور القومى المحلى فى أذهان كثير من الأفراد ممن لم يصلوا بعد إلى مراتب عالية من الوعى السياسى « العربى » ؟ وإننا نجيب على هذا التساؤل على النحو الآتى : إن مهمة الهيئة الحاكمة صاحبة السلطة فى دولة ما هى تنظيم سلوك الأفراد فى حياتهم العامة وضمان تنظيم رفاهتهم ، ومقابل هذا يدين الفرد للهيئة الحاكمة بالطاعة — أو بمعنى آخر يدين للدولة بالولاء . فلماذا لا نقول إن توافر النية الحسنة لدى حكومات الدول العربية من شأنه أن يوجه أذهان الأفراد إلى الشعور بالولاء لهيئة أو لسلطة مركزية عربية اتحادية طالما أن تلك الهيئة تسعى لتحقيق مصلحة مجموعة الدول العربية. وليس ثمة ما يجعل ولاء الفرد فى اتحاد عربى ينفى أن يحد من ولائه لدولته المحلية — أما فيما يتعلق بالدولة نفسها أو بالسلطة الحاكمة فالمفروض فى الدول الراغبة فى الاتحاد أن حكوماتها تقبل سلفاً بعض القيود على سيادتها المطلقة وذلك فى سبيل مصلحة المجموعة .

وأيًّا كان نوع الاتحاد العربى فلن يكون هناك ثمة سبب يدعو المواطنين فيه إلى التضحية بقوميتهم أو مصالحهم القومية أو ولائهم

لدولهم . وذلك لأن المصالح المشتركة القائمة فعلاً بين دول العالم العربى من شأنها أن تجب وتعوق ما تحققه الحكومات القومية المحلية . بل لسنا نبالغ إذا قلنا إن المصالح المشتركة فى العالم العربى اليوم تعتبر من القضايا الكبرى التى لا بد أن يتكتل من أجلها أفراد الأمة العربية ويضحون بآرائهم وميولهم المحدودة فى نطاق ضيق من القومية المحلية . ولعلنا نذكر هنا أن دعاة التفرقة والانهزاميين فى بعض الدول العربية يسوقون لنا مثل أوروبا الشرقية ويقولون إن الاتحاد السوفيتى يعمل على قتل العاطفة القومية فى فى تلك الدول ليغرس فى نفوس الأفراد ولاءهم الإجبارى للاتحاد السوفيتى ، وأن الدول العربية — على حد قول هؤلاء — لن ترضى بمثل ذلك الوضع من فرض سلطة دولة كبرى عليهم ، ولن يرضوا بنفس الأساليب من القمع والتنكيل والاستبداد وكبت الحريات . ومن الذى قال إن مثل تلك الأساليب أو أى نوع من أنواع الضغط المباشر أو غير المباشر سيكون لازماً لنشر فكرة الاتحاد العربى وتكوين دولة قومية عربية ؟ إن الحاجة الماسة والشعور بالخطر الخارجى المشترك ستدفعان الدول العربية إلى التكتل الإيجابى بمحض إرادة الحكومات وتحت ضغط أفراد الشعب العربى أنفسهم . والأحداث الأخيرة خير شاهد على ذلك .

لقد ثبت من المشاهد فى التاريخ السياسى للأمم أن الشعور بخطر عدو أجنبى يهدد مجموعة من الدول المتفرقة يعد من أقوى العوامل لتكتلها ودفعها نحو الاتحاد . وما من شك فى أن دول العالم العربى دون استثناء تواجه خطراً متزايداً من أطماع الصهيونية والسياسة والأحلام الاستعمارية

الصهيونية . إن الصهيونية التى كانت العامل الأساسى فى تقسيم فلسطين لهى فى الوقت ذاته العامل الأساسى الذى يجب أن يوحد دول العالم العربى سواء أشاءت ذلك إرادة الحكام المستبدين أم لم تشأ . وإن كان بعض الساسة المغرضين فى دول معينة يتهربون من الحقيقة الواقعة فى الوقت الحاضر ، فسيأتى اليوم الذى يقضى فيه على أمثال هؤلاء ، ويكون للشعب الكلمة العليا فى تأكيد ضرورة الاتحاد التام لمواجهة الخطر . . . حينئذ سيفخر كل عربى بأن القومية العربية الحقة قد حققت هدفها الأسمى ووصلت الأمة العربية إلى المراتب العليا من النضوج السياسى .

على أننا لا بد أن نشير هنا إلى أن الخوف المجرد لا يعتبر عاملاً قوياً كافياً لدعم الوحدة القومية ، فالخوف المجرد يعتبر عاملا سلبياً يؤدى مهمة مؤقتة وغالباً ما تختفى فاعليته بعد تحقيق النصر أو انتفاء الخطر . فالخوف الذى لا يصحبه هدف إيجابى أو مصالح إيجابية عليا قائمة ومستمرة ، قد يدفع أحد الأعضاء فى معاهدة أو اتحاد أو جامعة دولية إلى التراضى مع العدو وعقد « هدنة » منفردة معه ، بقدر ما قد يدفع هذا العضو إلى استمرار ولائه وتضامنه مع بقية أعضاء المجموعة . والاتحاد القائم على أساس الخوف من الخطر الخارجى وحده لا يعتبر فى رأينا اتحاداً إيجابياً ، وإنما يعتبر معاهدة موقوتة . ولذلك كان من واجب كل عربى أن ينظر إلى أبعد من مجرد الخطر أو الأخطار الخارجية التى تهدد الأمة العربية . عليه بمعنى آخر أن يفكر فى المصالح المتعددة من اقتصادية وسياسية ؛ عليه أن يفكر فى « الدول العربية المتحدة » كقوة لها مركزها

وهيبتها فى الميدان الدولى ، عليه أن ينظر إلى مصيره ويقارن بين وضعه فى دولة قومية صغيرة ضعيفة الإمكانيات — يتلاعب بها الحكام وتتقاذفها تيارات الاستعمار وأطماع الطامعين — وبين وضعه كمواطن فى دولة عربية قومية متحدة غنية بشعور أفرادها وغنية بمواردها ، ينظر إليها العالم بعين الاحترام والتقدير ، وتقوم بدور فعال فى خدمة السلم والإنسانية.

ولن نكون منصفين إلى التحليل العلمى الدقيق إذا أنكرنا وجود بعض مظاهر الخلاف بين الدول (أو الحكومات) العربية فى الوقت الحاضر. فبعض هذه الخلافات قد دسها الاستعمار بين صفوفنا وبعضها توارثته الدول نتيجة لشعور تقليدى أو عقيدة مكتسبة أو دعاية مضللة (مثلما يقال عن وجود خلاف تقليدى بين هاشميين وسعوديين) ؛ وبعض هذه الخلافات ناتج من تقدير خاطئ من جانب بعض السياسيين لموقف الدول العربية أو حقيقة مصلحة الأمة العربية ؛ وبعضها ناتج عن الدعاية المسمومة التى لا يفتأ يدسها الاستعمار مثلما يقال من أن مصر تريد فرض زعامتها على الدول العربية الأخرى ، كما أن بعض هذه الخلافات ناتج عن انعدام روح القومية العربية فى نفوس بعض الساسة فى الدول العربية ممن خدعهم الاستعمار وكسبهم إلى صفوفه .

إن هذه الخلافات موجودة فعلاً ، وتسويتها لن تتأتى بمجرد الإكثار من التصريحات الرنانة الجوفاء عن الأخوة والتضامن والعروبة ، ولكنها تتأتى عندما يعترف أفراد الأمة العربية بوجود هذه الخلافات فعلاً وبضرورة القضاء عليها . وعندما يعترف الشعب العربى بوجود هذه الخلافات ،

وعندما يتعرف على حقيقتها ، عليه أن يحكم بنفسه بعد ذلك ما إذا كانت تلك الخلافات الظاهرية من الحدة بحيث تقع عقبة فى سبيل اتحاد الأمة العربية ، أم أنها مجرد ظواهر دخيلة يقترن وجودها بوجود الاستعمار المستتر فى الدول العربية المستقلة . إن الشعب وحده هو الحكم فى قضاياه ومصالحه ، وهو الذى سيقضى يوماً من الأيام على تلك الخلافات . إذ أن فى القضاء عليها قضاء على ركن يعتمد عليه الاستعمار فى التضليل بنا والتحكم فى مصائرنا والوقوف فى وجهنا حتى لا نصل إلى المركز الدولى الذى نستحقه .

ولعلنا نذكر هنا أيضاً أن دعاة « الانفصالية » الذين يعتقدون بوجود مثل تلك الخلافات بين الدول العربية ينادون باستحالة الاتحاد — على زعم أن ولاء الفرد لدولته وواجبه القومى وسيادة الدولة التى يتبعها تتعارض كلها مع مبدأ الولاء لدولة قومية عربية متحدة . والرد على هذا الزعم واضح لكل وطنى عربى ، إذ أن ولاء الفرد لدولته لا يتعارض بأى حال من الأحوال مع ولائه للوطن العربى الذى يمثل المصالح والجهود المشتركة من سياسة موحدة ودفاع موحد منبثق من صميم الوطن العربى ، وتنظيم اقتصادى على أساس التكامل الإقليمى والتخصص ، كل هذا بالإضافة إلى الهيبة والمكانة التى تتوافر لدولة قومية كبرى بما لها من موارد وطاقة بشرية .

وليس معنى ذلك أننا نتجاهل ولاء الفرد لدولته أو للهيئة التى فى يدها السيادة ، أو أننا نطالب منه عدم الاعتراف بحكومته ، وإنما نريد من الفرد أن يتبين الرشد من الضلال ويعلم أن ولاءه لدولته ليس معناه ولاء

لحكم فى حد ذاته أو لحاكم معين فى شخصه ، وإنما معناه الولاء لذلك النظام أو ذلك الحاكم أو تلك الدولة التى تحقق له مصالحه القومية . ولا شك أن الانتقال بالفكر السياسى من مجرد ولاء الفرد لشخصية الحاكم أو للنطاق الضيق الذى تمليه حكومته أو رئيس تلك الحكومة ، إن الانتقال من هذا الفكر إلى فكرة الولاء لدولة قومية عربية سيأتى مع الزمن ومع الثقافة السياسية والنضوج السياسى ومع الأحداث التى تمر بها الأمة العربية . وهنا نجد أنفسنا وقد عدنا إلى حقيقة القومية العربية : أحداث تمر بها القومية العربية ، مصالح مشتركة ، ثقافة سياسية ، ونضوج سياسى تتجمع كلها كعوامل إيجابية لنشر الوعى القومى العربى والوصول به إلى هدفه الأسمى .

فالدولة العربية ذات السيادة ، أو قل الهيئة الحاكمة فى تلك الدولة تتطلب ولاء من الفرد ، وهذا الأخير بدوره لن يؤمن بهذا الولاء أو يدين به إلا إذا أيقين أن الهيئة الحاكمة تحقق له مصالحه وأمانيه ... والمصالح والأمانى للفرد العربى ليست مقصورة على النطاق المحلى الضيق بل تذهب إلى ما وراء الحدود السياسية التى تفصل بين الدول العربية . وإذا ما شعر الفرد بحقيقة أين تقع مصالحه ، وأيقن أن مصلحته كمواطن عربى فوق مصلحته كمواطن فى دويلة قومية (قياساً إلى العالم الحاضر — عالم سياسة القوى) . حينئذ سيكون هو أول من يطالب من السلطة الحاكمة أن تخضع للصالح العربى العام وتحنى رأسها أمام فكرة الدولة القومية العربية . إن مثل هذه الأوضاع « المثالية » التى يبتغيها كل عربى وطنى تعتمد

لتحقيقها على انتشار الوعى السياسى ؛ وهى أيضاً — وفى الوقت ذاته — نتيجة حتمية لانتشار هذا الوعى . ومهما طالت مكائد المستعمرين ودسائسهم ، ومهما تعددت مهاترات المتشائمين وأحقاد المغرضين وذوى المصالح من عملاء الاستعمار ، وأخطاء الساسة قصيرى النظر ، فلن يغير ذلك من مستقبل العالم العربى ومستقبل القومية العربية وتكوين دولة قومية عربية متحدة .

الفكر الغربى والقومية العربية :

دأبت صحافة الدول الغربية فى السنين الأخيرة ، وبخاصة منذ قيام النظام الحاضر فى مصر ، على التعرض بالنقد للحركة القومية العربية ومحاولة النيل منها والتنديد « بخطرها » . وقد زادت حملات الانتقاد هذه عندما صدر الدستور المصرى الأخير الذى جاء فى ديباجته :

« نحن الشعب المصرى ، الذى يقدس الكرامة والعدالة والمساواة باعتبارها جذوراً أصيلة للحرية والسلام » ؛

« نحن الشعب المصرى ، الذى يشعر بوجوده متفاعلاً فى الكيان العربى الكبير ويقدر مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك ، لعزة الأمة العربية ومجدها . . »

فما الغرض من هذه الحملات وموجة النقد المناهضة للقومية العربية . إذ قلنا إن مهاجمة القومية العربية من جانب دولة كبريطانيا أو فرنسا يتمشى مع الأغراض والسياسة الاستعمارية ، فكيف نفسر مثل هذا الهجوم الوارد على صفحات الجرائد والمجلات الأمريكية أو السويسرية مثلاً » ! ؟

إن الصحافة فى جميع أنحاء العالم تقوم بدور أساسى فى نشر الثقافة السياسية بين الأفراد ، ويفترض فيها أن تنقل صورة صادقة لحقيقة الأحداث العالمية والتيارات السياسية فى المناطق المختلفة من العالم . ونحن نعلم أن غالبية الكتاب الذين يتعرضون فى كتاباتهم لمشاكل وأحداث الشرق العربى يقومون عادة بدراسة الأمور على حقيقتها ؛ ويلمسون بأنفسهم طبيعة الأحوال والأحداث فى الدول العربية عن طريق زياراتهم لتلك الدول أو إقامتهم فيها . فلماذا نجد فريقاً من هؤلاء يشن أعنف الحملات وأقساها لمناهضة الحركة القومية العربية والتنديد بآثارها وتضليل القراء والرأى العام عن حقيقة الشعور القومى العربى ؟

فكلما قامت حركة قومية فى إقليم عربى — فى الجزائر أو تونس أو العراق أو الأردن — يسارع فريق من كتاب الغرب إلى وصف تلك الظاهرة القومية بأنها « متاعب » لا أحداث طبيعية ، وأنها — أى الحركات القومية العربية — ترجع إلى عوامل ثلاثة هى : أعراض مرض القومية (هكذا يسمونها) . والدعاية المصرية ، والنفوذ الشيوعى . لقد تكرر هذا الوصف فى أكثر من دولة غربية إلى درجة أن لم يصبح لدى الكثير من الكتاب والصحفيين شخصية ذاتية فى أفكارهم وآرائهم وكتاباتهم التى يتناقلونها بعضهم من البعض الآخر ، وراحوا يردون كل الأحداث السياسية والقومية فى العالم العربى إلى أحد هذه العوامل الثلاثة أو كلها مجتمعة ! !

فما هو السبب وراء مثل هذه الحملات التضليلية؟ لنأخذ مثلا الصحافة الأمريكية — تلك التى تعنى بنشر حملات التضليل — ولنسائلها أو نسائل

الكتاب فيها : ما الغرض من تغيير الحقائق وتزويرها ، وإعطاء الرأى العام الأمريكى صورة غير صادقة عن حقيقة القومية العربية . وكيف يسمح هؤلاء الكتاب لأنفسهم بتضليل الرأى العام الأمريكى إلى هذه الدرجة فى الوقت الذى يتعرضون فيه للكتابة عن مشاكل سياسية ذات أهمية دولية كبرى ؟ وكيف ولماذا يصورون القومية العربية على أنها مدفوعة من المعسكر الشيوعى أو أنها مغذاة بالدعاية الشيوعية التى يزعمون أن الطبقة المتعلمة فى العالم العربى تقوم بالترويج لها ؟

ما الغرض الذى ترمى إليه حملات التضليل هذه ؟ هل هو تضليل الرأى العام الأمريكى ؟ أكاد أجزم بأن ليس هذا هو الغرض لأننى أفترض أن الكاتب أو الصحفى أمين على رسالته ومخلص فى أدائها ، وواجبه يقتضيه كمواطن صالح ألاّ يضلل بإخوانه فى الوطن ممن سيتشبعون ولا شك بكتابته وآرائه . وأكاد أجزم أيضاً أن ليس هناك كاتباً أو صحفياً يريد الإطاحة بمصالح بلاده أو الإضرار بها عن طريق بث الأكاذيب فى أذهان الرأى العام فى الولايات المتحدة ، فإن التمادى فى هذا التضليل لا بد وأن يظهر رد فعله فى الأمد الطويل عندما يجد الشعب الأمريكى نفسه فى موقف يضطر إزاءه اتخاذ قرارات خطيرة بشأن الموقف الدولى . فإن لم يكن هناك رأى عام متنور عارف لحقيقة الأحداث فى العالم العربى مثلا ، ربما أخطأ التقدير واتخذ قراراً يطيح بسمعة بلاده ومصالحها .

وإذا استبعدنا منطقياً أن الكاتب يريد التضليل بالرأى العام فى بلاده ، فكيف نفسر إذن هذا التضليل المتعمد ؟ هل هو النفوذ الصهيونى

فى صحافة الدول بما أوتى من أموال وموارد وقدرة مالية تتحكم فى الصحف وتحريرها ؟ هل يقع الكتاب تحت ضغط الصهيونيين فى بلد كالولايات المتحدة ، فيحاولون النيل من القضية العربية ، ويحاولون تشويه الحقائق ، وتصوير القومية العربية على أنها ظاهرة شيوعية حتى يثيرون شعور الشعب الأمريكى ضد العرب والدول العربية ؟ قد يكون ذلك حقاً ، ولكن أين الأمانة الصحفية ، وأين الواجب القومى ، وأين الإيمان بالرسالة التى تؤديها الصحافة من حيث خدمة المصلحة العليا للبلاد بتعبئة الرأى العام تعبئة أساسها الصدق وحقيقة الأمور ؟ إنى لا أرمى من ذلك إلى استنتاج قاعدة عامة فيما يختص بميول الكتاب المعارضين للقومية العربية ، لأننى لا أريد الوقوع فى نفس الخطأ المنطقى الذى يقع فيه ناقدونا . لا شك أن فريقاً من هؤلاء الكتاب يجهل حقيقة الشعور القومى العربى ، ونحن كأفراد يدينون بهذا الشعور ويلمسون حقيقة دوافعه نغتفر لنقادنا جهلهم بحقيقة قضايانا ، وعلينا أن نبدل هذا الجهل برشد وذلك بأن نرد على انتقاداتهم الخاطئة .

فمثلاً القول بأن الأحداث العربية يدفعها عامل الشعور « بأعراض مرض القومية » قول فيه اجتراء كبير على الألفاظ اللغوية بقدر ما هو مخالف للحقائق . فالشعور بأعراض المرض فيه كناية عن النذير بشىء مكروه ، ووصف القومية العربية بأنها مرض يحمل معنى استياء صاحب هذا الرأى من تلك الظاهرة ، وعدم اعترافه بها كظاهرة سياسية واجتماعية فى العالم العربى . فهل ثمة كاتب محايد بعيد عن الآراء المغرضة دارس لحقيقة التطور والنضوج القومى فى العالم العربى يمكنه القول بأن القومية

العربية مرض غير محمود ؟ إن الحركات القومية كثيراً ما وصفت فى بدء مراحلها بأنها اضطرابات ومشاكل ، وكثيراً ما انتقدها المناهضون وهاجموا الداعين لها . فهل كانت الحركات القومية فى الهند وأندونسيا والدول الأوروبية القومية أمراضاً سياسية أو اجتماعية ؟ إذا كانت القومية تسمى مرضاً ، وتنتهى إلى تحقيق الحرية والاستقلال والسيادة الكاملة فأنعم بهذا المرض وأكرم .

حقاً ، ليس فى قدرة الصحفى أو الكاتب الذى يكتب للقارئ العام ، أن يتوغل فى النظريات والفلسفات السياسية ليصف لقارئه ما هى القومية ، وما هو الوطن ، والشعور القومى ، والكفاح القومى . ولكن إذا كان المجال الصحفى يضيق بمثل هذه الكتابة العلمية فهذا لا يمنع الصحفى الذى يتعرض لمثل هذه الظواهر السياسية من أن يكون ملماً تمام العلم بها . وإلا فليترك المجال لغيره ممن يحسنون عرض الأمور على حقيقتها حتى لا يوقعون بين الشعوب ويثيرون الأحقاد بين شعبى أمتين دون مبرر أو داع . فمن الخطر أن يحاول الكاتب التعرض لموضوع سياسى فى إقليم معين دون أن يكون قد درس الأحداث والأوضاع فى هذا الإقليم دراسة وافية .

فالقومية العربية لها تاريخها ودوافعها ومقوماتها على نحو ما أوضحنا فى هذا المقال ، ولن تستطيع دولة كائنة من كانت — كبرى أو صغرى ، ديمقراطية أو دكتاتورية — أن تقف حائلاً دون التطور نحو الدولة القومية العربية فى العالم العربى . وإذا كانت الأحداث والتيارات الخارجية والدسائس المحاكة قد منعت الأمة العربية فيما مضى من الإعراب عن ذاتيتها وكيانها

كوحدة قومية ، فإن تلك الوثائق لم يكتب لها دوام البقاء . وما يحدث اليوم في الدول العربية من تطور نحو استكمال السيادة والحرية ما هو إلا تطور طبيعي ونمو عضوي للكيان العربي . وإن بناء عزة الأمة العربية ومجدها ، وشعور كل عربي بمسئوليته والتزاماته نحو النضال العربي المشترك — كما نص على ذلك دستور مصر الأخير — كل هذه ظواهر ديناميكية من صميم حياة الشعب العربي ولن تقف الحدود السياسية التي فرضها الاستعمار حائلا دون استكمال هذا النضال والوصول إلى آخر مراحله من حرية وسيادة شاملة رغم أنف الدول المستعمرة ورغم أساليبها الاستعمارية البالية .

وكما قلنا فإن الوعي القومي تغذيه الثقافة السياسية والتربية القومية السليمة وانتشار التعليم الذي يساعد على نضوج الأفراد سياسياً واجتماعياً . وهنا نجد أنفسنا أمام نقد آخر يحاول بعض كتاب الغرب توجيهه لمصر افتراء وبهتاناً . يقول هؤلاء إن الدعاية المصرية تشعل نار القومية العربية وتزيدها تأججاً ، وإن مثل تلك الدعاية — على حد قول المضللين من كتاب الغرب — تتسبب في « متاعب » للدول الغربية لأنها تحض الشعب العربي على « التمرد » والثورة ضد الغرب مما يهدد مصالح الدول الغربية . ولقد انتشرت فكرة مهاجمة الدعاية المصرية على هذا النحو بين كتاب الغرب — وبخاصة عملاء الاستعمار والصهيونية منهم — وأصبحوا يعتبرون الدعاية المصرية ضحية الفداء يلقون عليها التبعة — تبعة إلهاب الشعور القومي العربي ! ! عجباً والله وأي عجب ! !

وقبل الرد على هذه المزاعم نريد أن نسأل مروجيها هذا السؤال : ما هو مركز الدعاية فى العلاقات الدولية ، وهل الدعاية السياسية شر يجب تجنبه ؟ هل هى أداة أو وسيلة أو مظهر من مظاهر العلاقات بين الأمم ، وهل يمكننا القول بأنها تؤدى إلى ازدياد التوتر بين الدول ؟ هل هى تلك الحرب التى أصبحت تعرف فى علم العلاقات الدولية باسم « الحرب الباردة » ؟ أى هؤلاء الكتاب ممن يهاجمون السياسة المصرية العربية والدعاية المصرية للقومية العربية يستطيع الإجابة على تلك الأسئلة ؟ إننا نشك فى أن منهم من له القدرة على أن يرد عليها رداً علمياً مقنعاً .

لنسأل هؤلاء مثلا : كيف يصفون الدعاية الأمريكية فى السنين الأخيرة ، وهل يعتقدون أنها شر يجب تجنبه ومناهضته ، أم يرون فيها خيراً للسلم العالمى ورفاهة الشعوب ؟ ؟ هل يجب على الحكومة الأمريكية أن توقف حملاتها وجهودها فى ميدان الدعاية ، وتترك الباب مفتوحاً لتسلل الدعاية المضادة لها إلى درجة الإضرار بسمعة الولايات المتحدة والمخاطرة بمصالح مواطنيها ؟ إن الولايات المتحدة الأمريكية تنادى بأن لها « رسالة » تؤديها كدولة من الدول الكبرى ذات المسئولية فى الميدان الدولى ، وأن تلك الرسالة هى صون العالم الحر من أخطار المذاهب الشيوعية . فماذا تكون النتيجة بالنسبة للشعب الأمريكى لو أن حكومة الولايات المتحدة تخلت عن « رسالتها » هذه ونبذت فكرة الدعاية لها ؟ إنه سؤال نوجهه إلى كل صحفى وكاتب أجنبى يهاجم القومية العربية وينتقد دعوة مصر لها — ولعل الجواب عليه ميسور واضح لا يحتاج إلى تعقيب .

إن النشاط الذى تبديه الولايات المتحدة فى ميدان الدعاية ، وشتى مظاهر هذا النشاط ، والأهداف التى يوجه إليها فى أنحاء العالم المختلفة يرمى دون شك إلى تحقيق مصلحة للشعب الأمريكى ، كما يهدف إلى تحقيق غرض معين فى ذلك الجزء من العالم الذى يسمونه « بالعالم الحر » . فالدعاية الأمريكية إذن تحقق فى نظر الحكومة الأمريكية حماية المصالح القومية الأمريكية ومصالح شعوب معينة ضد الأخطار والتهديدات التى يفترض أنها تأتى من دول معادية . وإذ ذاك يكون الغرض من الدعاية فى رأى السياسيين الأمريكيين غرضاً متمشياً مع الأسس « الأخلاقية » (بمعناها السياسى) ومبادئ الحياة الديمقراطية الحقة التى على أساسها تخدم الدولة مصالح مواطنيها . . . وبذلك يأخذ سياسيو الولايات المتحدة على عاتقهم استعمال شتى وسائل الدعاية للقيام بواجبهم كأفراد مسئولين عن تحقيق المصلحة القومية لبلادهم .

ليس فى استطاعة كاتب أو صحفى أمريكى أن ينكر هذه الحقائق ، ولكننا رغم ذلك نجد فريقاً منهم يحرم على غيره ما يستحل لنفسه ، فيهاجم الدعاية المصرية ويندد بها ويصفها بأنها تثير القلاقل والشغب فى ربوع العالم العربى . فأى غرض يرمى إليه هذا الفريق من الكتاب من وراء حملاتهم الهجومية هذه ؟

إن أمثال هؤلاء الكتاب الذين يتعمدون التضليل ، أو غيرهم من المأجورين للاستعمار والصهيونية ، إنما يريدون تزوير الحقائق وإثارة الشعور العالمى ضد مصر وتشويه رسالتها . فإن مصر رائدة القومية العربية

فى العالم العربى ، ومصر التى ينظر إليها كل عربى مؤمن بعروبته كمركز إشعاع للفكر السياسى الحديث والنضوج القومى المستنير ، مصر هذه لها رسالة تؤديها فى العالم العربى ، وهى رسالة لا يمكن تجاهلها بأى حال من الأحوال . وليست هذه الرسالة مقصورة على مرحلة معينة من حياة مصر السياسية ، ولا هى من تصميم حكومة أو حزب معين ، ولا هى بنزعة أو أسلوب ابتدعه فرد أو مجموعة من الأفراد . بل إنها رسالة من صميم حياة مصر أوضحها الدستور حين نص فى ديباجته : « نحن الشعب المصرى الذى يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربى الكبير ويقدر مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها . . . » .

فكيف يمكن لمصر إذن أن تتناسى واجبها الأدبى الذى يملى عليها مسئولية توجيه الفكر السياسى العربى توجيهاً رشيداً نحو القومية العربية ؟ إن الدول العربية الشقيقة تنظر إلى مصر نظرة الأخوة والتقدير ، تستلهم العظة من كفاحها ، وتعتبر أن هذا الكفاح الذى يقوم به أبناء مصر إنما هو كفاح من أجل العروبة والعرب جميعاً . فهل يطلب الاستعمار الغربى من مصر أن ترفض تأدية رسالتها وتصد الشعب العربى قائلة : « لا شأن لى بكم » ! ؟ ليس هذا من المعقول ، بل على مصر أن تعمل ما فى وسعها عن طريق التعاون الثقافى والمادى والأدبى مع شقيقاتها الدول العربية لتحقيق رسالة العروبة ونشر الوعى القومى العربى كوسيلة للوصول إلى هدف الدولة القومية العربية المتحدة . وإذا لم تقم مصر — بل وكل دولة

عربية — بالدعوة إلى الكفاح القومى ضد الاستعمار والصهيونية فماذا سيكون مصير العروبة ومستقبل الدول العربية ؟

وأخيراً لنا كلمة للرد هى على أكاذيب بعض الكتاب ممن يدعون أن العناصر الشيوعية هى المحرك للحركات القومية فى الدول العربية المختلفة . إن مثل هذا الافتراء على الحق ومثل هذا التضليل يرمى إلى غرض واحد وهو تشويه القومية العربية وإيجاد التوتر بين الدول العربية والدول الأخرى المناهضة للشيوعية . وأى باحث أو دارس يتوخى الحقيقة لا يسعه إلا أن يسخر من تلك الادعاءات الواهية التى يراد منها إلحاق الضرر بالمجاهدين من الوطنيين العرب ، كما ترمى فى أغلب الأحيان إلى إحراج مركز بعض الحكومات العربية والإطاحة بها حتى تتاح الفرصة لحكومة أخرى قد تكون أكثر « ليونة » مع السياسة الاستعمارية .

وادعاء اقتران القومية العربية بالشيوعية يذكرنا بالأسلوب الذى كانت تتبعه الدول الاستعمارية الغربية فى الفترة بين الحربين حينما كانوا يدعون أن الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية (ممثلة فى حكومات إيطاليا وألمانيا) كانتا القوة المحركة للاضطرابات والحركات القومية المناهضة للاستعمار فى الشرق الأوسط . لقد كان هذا الادعاء باطل من أساسه ، إذ بينما قيل إن ألمانيا وإيطاليا تتسببان فى المتاعب لإنجلترا وفرنسا بإثارة الاضطرابات القومية ضدهما فى المناطق الخاضعة لنفوذهما ، كان المواطنون العرب فى ليبيا يقاومون الاستعمار الإيطالى أشد مقاومة ، وكان الشعب المصرى يندد بالاستعمار الإيطالى فى أفريقيا والحبشة ويعمل

بكل ما أوتى من قوة لتأييد النضال القومى للشعب الحبشى . هذا بالإضافة إلى أن معظم الأحزاب القومية فى الدول العربية كانت لا تفتأ تظهر عداوتها السافرة للنظم الاستبدادية الفاشية بأنواعها .

واليوم يطلع علينا دعاة الاستعمار وعملاؤه بمنطق آخر يحاولون به إحالة الخير إلى شر والحق إلى باطل . فهم بادعائهم أن الشيوعية تحرك القومية العربية ، أو أن الكفاح القومى العربى من الشيوعية إنما يستعملون أسلوباً لا منطقياً ينهار من أساسه إذا نظرنا له نظرة العاقل المتبصر . إن دعاة الاستعمار المناهضين للقومية العربية يقولون :

القومية العربية : تكافح الاستعمار

والشيوعية : تكافح الاستعمار

∴ فالشيوعية = القومية العربية

إن مثل هذا التحليل والاستنتاج الخاطئ باطل من أساسه ويظهر بطلانه دون الحاجة إلى دراسة فلسفة المنطق والتحليل العلمى المنطقى ، وأى قارئ عادى يمكنه الرد على هذا الاستنتاج الخاطئ دون تردد .

وكلمة أخيرة نقولها لهؤلاء المغرضين : إن المعروف عن الحركات الوطنية والكفاح القومى فى الدول العربية هو أنها كانت دائماً أبداً تقوم على أكتاف الطبقة المتنورة المثقفة تثقيفاً عالياً . فشباب الجامعات وخريجى الجامعات كانوا هم فى طليعة الأحرار المناضلين فى سبيل قضايا وطنهم العربى منذ أن قامت أولى بوادر الثورة العربية القومية . فلماذا لم يقال عن المكافحين الأوائل إنهم شيوعيون ؟ ثم كيف يمكن لعاقل يدرس الأمور

ويزنها بميزان الحق أن يفسر حركة قومية هدفها التحرر وتحقيق السيادة القومية الكاملة على أنها قرينة للمذهب الشيوعى الذى ينادى بالدولية ويعتبر الحركات القومية الضيقة النطاق على أنها ثورات تحركها مصالح مادية ؟

ليعلم الاستعمار وليعلم دعاة الاستعمار والمغرضون وعملاء الصهاينة وأعداء العرب . . . ليعلم كل هؤلاء أن الكفاح القومى العربى كفاح مستمر متصل يعم الشرق العربى بأسره ، وأنه متكامل فى جميع الأقطار العربية ، وأنه يسير سيراً طبيعياً تطورياً منبعثاً من صميم شعور العرب أينما وجدوا . وسيأتى اليوم الذى تتحقق فيه ثمرات هذا الكفاح ويحق لكل مواطن عربى أن يفخر بوطنه العربى المتحد ودولته العربية القومية التى كانت حلم آبائه فى الماضى والتى ناضل هو وإخوانه فى سبيل دعمها وتقويتها .

فلسفة الاستعمار

بقلم

الدكتور ناصر الدين الأسد

(١)

بدأ الاستعمار الأوربي الحديث منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ومطلع القرن السادس عشر — عصر الكشوف الجغرافية ، حين امتلأ خيال أوربا بسحر الشرق وصارت تداعب نفوسهم رؤى لياليه المفعمة بالبذخ ونعمه التي تفيض بالترف . فشد إليه الرحالة المغامرون أشرعة مراكبهم ليروا بأعينهم ما امتلأت به نفوسهم من قصص الذين سبقوهم إلى ارتياده ، وطمحت إليه أهواء التجار لينقلوا إلى بلادهم حريره وجواهره وعطوره وبخوره وبهاره وتوابله وسائر أدوات الزينة ووسائل الترف ، واتجهت إليه أنظار الأمراء والملوك ليضيفوا إلى أملاكهم بلاداً جديدة تدخل في حوزتهم وتوسّع من رقعة نفوذهم ، وواكب هؤلاء جميعاً رجال الدين من المبشرين لينشروا في هذه البلاد الشاسعة تعاليم السيد المسيح ، وليشيعوا في نفوس ساكنيها الطمأنينة لهؤلاء الوافدين عليهم ، وليكسبوا ولاءهم للدول التي يفدون منها .

وتمثل لهم الشرق بهذه المعانى — أول ما تمثل — فى الهند وما جاورها من بلاد وأحاط بها من جزر وسواحل . فكان همهم الأول أن يكتشفوا طرقاً بحرية جديدة يسلكونها إلى هذا الشرق — ويتجنبون فيها السير فى ديار الإسلام والوطن العربى — الممر الطبيعى بين الشرق والغرب وحلقة الوصل التى تربط بين العالم بقاراته الثلاث . وذلك لأن الوطن العربى الإسلامى كان آنئذ عزيز الجانب منيع الحمى . وقادتهم محاولاتهم هذه إلى أن يكتشفوا بلاداً ظنوها بادئ الأمر الهند أو الجزر القريبة منها ، ثم تبين لهم أنها عالم جديد لم يكونوا قد عرفوه من قبل . ونجحوا فى أن يكتشفوا طريقاً بحرية تطوف حول إفريقية وتمر بطرفها الجنوبى — رأس الرجاء الصالح ، ثم تنتهى بهم إلى طلبتهم . وكان كل ذلك فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى . وإذ كانت هذه السبل كلها بحرية فقد كان من الطبيعى أن تسبق إلى هذه الكشوف الدول البحرية القوية آنذاك : البرتغال وإسبانيا ، ثم تبعتها إنجلترا وهولاندا ففرنسا .

ثم بدأ عصر الآلة فى أوربا وما سببته من انقلاب صناعى . وبعد أن كانت الصناعة اليدوية لا تكاد تفى بحاجة الناس ، أصبحت الصناعة الآلية تفيض عن احتياجاتهم ، وصار لا بد لهذا الفائض من أن يجد له أسواقاً خارجية . ثم إن هذه الآلة التى تنتج ذلك الفيض من المصنوعات كان لا بد لها من خامات ومواد أولية أكثر مما تنتجه بلادهم لتلبى الطلبات المتزايدة وتتناسب مع وفرة النتاج .

من أجل هذين العاملين معاً : وفرة الإنتاج ، والحاجة إلى الخامات ،

كان لا بدّ للبلاد الأوربية التى تأثرت بالآلة والانقلاب الصناعى من أن تبحث لها عن أسواق خارجية تصرف فيها فائض الإنتاج ، وبلاد جديدة تستمد من مواردها الخامات ، فوجدت بغيتها فى تلك البلاد التى امتد إليها نفوذها ودخلت فى حوزتها منذ عهد الكشوف الجغرافية .

وتبع ذلك أمران كان منطق الحوادث يمليهما ، الأول : تأمين السبل إلى هذه المستعمرات باحتلال السواحل ، والجزر التى تقع فى طريقها . والثانى : تقصير السبيل إليها .

ولذلك كان من الطبيعى أن تتجه أنظار الاستعمار الأوربى إلى الوطن العربى لتحقيق هاتين الغايتين معاً ، ولغاية ثالثة تستتر فى ثنايا الحوادث وقد تخفيها أحياناً ظواهر الأمور ، هى هذا الثأر القديم المتجدد بين هذا الوطن وبين أوربا ، والذى بلغ ذروته فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين .

وتسلم زمام المبادرة دولتان أوربيتان — كان لهما الدور الفعال فى ذلك الثأر القديم — هما فرنسا وإنجلترا . بدأت فرنسا بمصر سنة ١٧٩٨ م بحملة نابليون فأخفقت ، فاتجهت بأنظارها إلى أطراف الوطن العربى البعيدة عن قلبه القريبة من بلادها فاحتلت الجزائر — أول جزء من الوطن العربى يدخل فى حوزة الاستعمار سنة ١٨٣٠ م ، ولكنها لم تنس مصر وقلب الوطن العربى وإن اتبعت لذلك وسائل خفية غير الاعتداء المسلح الظاهر ، وكان أن شقّت قناة السويس بعد نحو ربع قرن من احتلال الجزائر .

كان شق قناة السويس أول كسب حقيقى يناله الاستعمار الأوربى فى وطننا ، فقد حققت لهذا الاستعمار غايتين ، الأولى تقصير السبيل إلى المستعمرات الأوربية فى الشرق ، والثانية فصل الجناح الأيمن للنسر العربى من جناحه الأيسر ، ولذلك كان من الطبيعى أن تحتل فرنسا تونس فى سنة ١٨٨١ ، وأن تحتل بريطانيا مصر فى سنة ١٨٨٢ ، وما كادت تمر السنوات الأولى من القرن التاسع عشر حتى كانت أجزاء الوطن العربى فى شمال إفريقية كلها ترزح تحت وطأة الاستعمار الأوربى باحتلال فرنسا لمراكش سنة ١٩١٢ واحتلال إيطاليا لليبيا فى السنة نفسها .

وما هى إلا سنوات خمس بعد ذلك حتى تم للاستعمار الأوربى بسط نفوذه على الجناح الأيمن من الوطن العربى فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فوقعت فى قبضته العراق وبلاد الشام . وامتد نفوذه فى أشكال وصور متباينة متفاوتة إلى قلب جزيرة العرب وسواحلها .

ذلك هو تاريخ الاحتلال العسكرى فى بلادنا ، لمسناه لمساً عابراً ، ومررنا به مرا موجزاً هيناً ، ولم نتعرض لأجزائه الدامية ولا لتفصيلاته الملأى بالتنافس بين دول الاستعمار الأوربى حين لا يكون ثمة خطر يهدد بها من غيرها ، فإذا ما دهمها الخطر ، إذا هذه الدول المتنافسة يد واحدة ومعسكر واحد ، غاياته وأهدافه واحدة ، بل إن معركته التى يخوضها — على تعددها — واحدة .

(٢)

ولكنّ وراء هذه القصة القصيرة من الغزو العسكرى التى دامت من بدئها فى سنة ١٨٣٠ حين غزيت الجزائر إلى ختامها فى سنة ١٩١٧ حين تمّ احتلال باقى أجزاء الوطن العربى فى العراق والشام — وراء هذه القصة القصيرة من الغزو العسكرى التى دامت نحو ثلاثة أرباع القرن وطد فيه أقدامه واستكمل أهدافه — قصصاً أخرى من الغزو العلمى مهدت للغزو العسكرى ، وحفت به ، ثم واكبته وسايرته .

ولنبدأ القصة من مطلعها :

منذ قرون قامت فى أوربا طبقة خاصة سميت المستشرقين لدراسة أحوال بلاد الشرق من جميع جوانبها . فعكف بعضهم فى بلادهم يدرسون فى كتبهم وكتبنا : تاريخنا ولغتنا وأدبنا وديننا وفقهنا ومجتمعنا ؛ ووفد بعضهم إلى بلادنا ، وتوسلوا إلى ذلك بشتى الوسائل : فعين قسم منهم فى البدء قناصل لدى الدولة العلية فى العراق وبلاد الشام ومصر وسائر الشمال الإفريقى ، ثم لدى الدولة العلوية فى مصر خاصة . وجاء بعضهم سياحاً يجوسون خلال ديارنا متعرضين لأخطر المهالك مدّعين أن غايتهم المتعة الشخصية والفائدة العلمية المجردة ؛ وجاءت طائفة أخرى تعلن أن هدى الإسلام قد انتشر فى قلوبهم وعقولهم ، فأقاموا بين ظهرانينا ، ووصلوا إلى

ما لم يستطع غيرهم أن يصل إليه ، وجاء آخرون مرتدين مسوح رجال الدين إلى الأديرة والكنائس المبثوثة فى وطننا ، وأنشأوا المدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية الطائفية .

ودرسنا جميع هؤلاء دراسة دقيقة عميقة : عرفوا ماضينا وحاضرنا ؛ رأوا آثارنا ونقوشنا ومخطوطات تراثنا ، ونقلوا إلى بلادهم ما استطاعوا أن ينالوه منها بالسرقة أو الاستهداء أو الشراء ، ووضعوها هناك بين أيدى الذين بقوا فى بلادهم عاكفين على الدراسة .

وعرفوا طبقاتنا الاجتماعية والاقتصادية ، وطوائفنا الدينية ، وفرقنا المذهبية ، ولهجاتنا المحلية ، وتعمقوا الفروق وأوجه الخلاف بين طبقة وطبقة وطائفة وطائفة وفرقة وفرقة ولهجة ولهجة ، وتتبعوا نشأة كل ذلك وتطوره ، وإمكانيات الاستفادة منه وتوسيعه واستغلاله .

ثم درسوا أرضنا : ظهرها وبطنها ، فعرفوا كل مدينة وقرية وسهل وتل وجبل وصحراء ، وعرفوا طرق مواصلاتنا — سواء الحديثة أو التاريخية القديمة منها — وثروتنا الزراعية والحيوانية والمعدنية .

وكتبوا كل ذلك فى تقارير وكتب ، درست بعناية دقيقة ، واستخرجت منها مفاتيح هذا الوطن العربى : مفاتيح السكان ، ومفاتيح المكان . ووضعوها بين أيديهم ، وبدأوا غزوهم .

ولم تستطع بصائرنا المظلمة أن ترى شيئاً ، وإن كانت أبصارنا قد رأت الجندى الغازى وحده ، فظنناه هو أداة الغزو الوحيدة ، فصرفنا همنا إلى محاربته وحده ، وجعلنا كل غايتنا فى إجلائه عن ديارنا . ونسينا أن

الغزو العسكرى ليس غاية قائمة بنفسها ، وإنما هو وسيلة يتوسل بها لتحقيق أهداف الاستعمار الحقيقية ، وحين تتحقق هذه الأهداف يجلو الجندى الغازى ، ويبقى الغزو نفسه .

بدأ الغزو العسكرى إذن بعد أن مهد له وحفّ به وواكبه غزو علمى ، جنوده هؤلاء المستشرقون سواء منهم العلماء الذين أقاموا فى بلادهم ، والقناصل والسياح ورجال الدين الوافدون إلى بلادنا .

(٣)

وبتحقيق الفتح العسكرى بدأ الغزو العلمى مرحلة جديدة ، هدفها تحقيق مصلحة الاستعمار تحقيقاً عميقاً أكيداً مستمراً من غير حاجة إلى بقاء الجندى الغازى نفسه . فقد كانوا يعلمون — من تاريخ الاستعمار الطويل — أن الجندى المحتل استفزاز مباشر له كيان مادى يرى ويسمع ويحس ، فيثير فى النفس الضغينة والحقد ، ويدفع إلى المقاومة والقتال ، وبذلك يصبح وجوده — بعد إتمام الفتح وتوطيد أركانه المادية — مهدداً للمصالح الاستعمارية بدل أن يكون مثبتاً لها ذائداً عنها . فأرادوا أن يبقى الاستعمار نفسه ، وتزول أداته المادية العسكرية . هنا بدأت المرحلة التالية من عمل المستشرقين : وجدوا أن الطريقة المثلى لتحقيق ذلك الهدف هى القضاء على مقومات البلاد المستعمرة ، واقتطاعها من جذورها الأصيلة التى تمدّها بالغذاء الطبيعى من باطن تربتها ، وإفناء أصولها السليمة

التى تضم عناصر الحياة والنماء ، بحيث تبقى جذعاً مبتوراً قائماً على سطح الأرض له فروع وأغصان يحسب نفسه ويحسبه الراؤون شجرة نامية ثابتة الجذور والأصول . ثم يقوم المستشرقون — هؤلاء الصناع الماهرون — بتجربة جديدة من تجارب علمهم : يجتلبون جذوراً جديدة من تربتهم هم ، ويضعونها فى مكان الجذور الأصيلة الأولى ، ويصلونها بجذع الشجرة ، ويمسكون بأيديهم السماد والماء : يغذونها ويروونها كما يريدون وحين يشاؤون تغذية وريًّا صناعيين يخلطون بالغذاء والماء بذور الضعف والهزال ، فتنمو الشجرة نموا غير طبيعى ، لا يلبث هذا النمو نفسه أن يحتاج إلى علاج جديد ، فتحقن الشجرة بحقن صناعية ، وتطعم بأنواع مستوردة من النبت ، وترش بضروب من المساحيق فتكتسب من جديد نموًّا ظاهرياً وتمدداً شكلياً تحسبه حياة متطورة سليمة ، فتنصرف عن إدراك السبب الحقيقى الأصيل لما تعانى .

(٤)

أدرك الاستعمار القوى الكامنة فى وحدة هذه الأمة : وحدة نضالها المشترك ، ووحدة وطنها الشاسع ، ووحدة لغتها الجامعة ، ووحدة دينها ذى الرسالة الحية الخالدة ، ووحدة مجتمعها المتماسك المترابط . فكان أول ما عملوه أن جزّءوا هذا الوطن الواحد وجعلوه أوطاناً متعددة فى كل بقعة منه دولة مستقلة لها حدودها الخاصة . ومع أن بريطانيا كانت تحكم

العراق وفلسطين وشرق الأردن ومصر ، وكانت فرنسا تحكم سورية ولبنان وتونس والجزائر ومراكش فقد اصطنعتا فى كل قطر منها حكومة ، وأقامتا بينها الحواجز فلا يجتاز عربى من جزء من وطنه إلى جزء آخر إلا بجواز خاص للمرور ، وفرضتا على تبادل السلع مكوساً وقيوداً وسكّتا فى كل قطر نقداً خاصاً ، وافتعلتا له اقتصاداً متميزاً وجندتا له جنداً مستقلا . وضربتا على عقول أبنائه ألواناً مختلفة متباينة من التعليم والثقافة ، وجعلتا فى كل قطر حكاماً تحيط بهم شراذم من المنتفعين الذين ارتبطت مصالحهم بهذه التجزئة ليصبحوا حريصين على قيام كيان مستقل فى كل قطر . وكانت الدولتان ترميان من وراء ذلك كله إلى قيام مجتمعات منفصلة متباينة فى كل قطر لتبقى هزيلة كسيحة لا تقوى على النضال .

وبدأ المستشرقون بركام هائل من المؤلفات عن الدين الإسلامى أولا ، فقد علموا أنه ركن أصيل من مقومات هذه الأمة ، فحفروا من حوله ، وبدأوا يهوون عليه بمعاولهم ليقلقلوه ويقتلعوه ، وألبسوا ذلك كله أثواباً علمية تخدع : بحثوا فى القرآن ، وأخذوا منه الآيات المتشابهة والمنسوخة ، ودرسوها ، واستنتجوا منها ، وحكموا على القرآن كله ، ثم استقصوا الأخبار الضعيفة والروايات الشاذة ، وتصيدوا أقوال بعض الأقدمين ، واتخذوا من الحالة المفردة قاعدة ، ومن الخبر الخاص حكماً عاماً . وطرزوا أبحاثهم بدراسات مقارنة : دينية وتاريخية ، ووشوّها بدراسات سيكولوجية وبيولوجية وجنسية عن حياة الرسول وحياة صحابته الأولين ، وأصدروا فى كل ذلك كتباً وأبحاثاً ظاهرها المنهج العلمى السليم والبحث الجامعى

العميق ، فدرّسوها لنا فى جامعاتهم بلغاتهم ، ثم درّسوها لنا فى جامعاتنا مترجمة أو غير مترجمة ، حتى ثقفناها مشدوهين مبهورين بهذا العلم الثمين . وتلقفناها عنهم ، وأذعناها فى دروسنا وكتبنا ومحاضراتنا . ولما اطمأنوا إلى أنهم قد أدّوا الرسالة كاملة ، وحققوا غايتهم غير منقوصة ، وسرت فى نفوسنا وعقولنا سمومهم (العلمية !) حتى صرنا نفكر بعقولهم ، ونبحث بطريقتهم ، ونؤلف على غرارهم — حين اطمأنوا إلى كل ذلك ، اختفوا هم وصدّرونا نحن فى الميدان .

وكان رعيل آخر من هؤلاء المستشرقين قد وجه عنايته فى الوقت نفسه إلى ركن أصيل آخر من مقوماتنا ، إلى جذر عميق من جذور كياننا ووجودنا : هو ثقافتنا العربية : تاريخنا وأدبنا ولغتنا ، فحفروا من حولها أيضاً ، وأهووا عليها بمعاولهم ليقلقلوها ويقتلعوها بالأسلوب العلمى والمنهج الجامعى ذاتيهما . فألفوا فى ذلك كتباً وأبحاثاً ، خلاصتها : أن الأمة العربية كانت أمة جاهلة صحراوية بدائية ، اضطرت تحت وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية إلى أن تغزو بقوة السيف البلاد المجاورة لها وتستعمرها ، ولم تستطع أن تكون لها حضارة ، وإنما جمعت فتاتاً من الحضارات القديمة وخاصة اليونانية والرومانية والفارسية ، واغتذت عليها واجترتها . وتاريخها الطويل إنما هو سلسلة من الخصومات والخلافات وجباية الأموال .

أما أدبها فلفظى سطحى لا قيمة له ولا طائل من ورائه ، ودراسته عبث ولهو وضياع وقت لا تليق بمن يحترم فكره وثقافته . وأما لغتها فمعقدة

متخلفة غير نامية ، عاجزة عن أن تساير ركب الحضارة والحياة الحديثة ، أما اللهجات المحلية العامية فهى تطور نام طبيعى ، ويجب أن تصبح لغات مكتوبة نعتاض بها عن اللغة الفصحى الواحدة .

ولم يكن هذا الهجوم دائماً سافراً واضحاً ، ولم يكن جميع المستشرقين يذيعونه وينشرونه فى آن واحد ، وإلا لكانت المؤامرة مكشوفة مفضوحة . بل إن بعض المستشرقين قد نصب نفسه لمخاصمة زملائه دفاعاً عن العروبة والإسلام لزيادة القلق وإشاعة الاضطراب ، وإمعاناً فى التمويه والتضليل . فنحن مثلا عند فريق من المستشرقين أمة مادية جافية ، كسيحة الخيال ، محدودة الآفاق ، لأن بيئتنا الطبيعية قد حكمت علينا بذلك ، وقد بلغت بنا المادية منزلة جعلتنا جماعة من التجار ، حتى إن لفظة « العربى » صارت تعنى عندهم إما تاجراً وإما لصاً .

ولكن فريقاً آخر من المستشرقين يستشيط غضباً لهذه الأوصاف ، ويدافع عنا دفاعاً قوياً ، ويرانا أمة روحانية مجنحة الخيال ، لا صلاح لأمورنا إذا جرفتنا تيارات الحضارة المادية الحديثة ، ولا بد لنا لكى نعيد مجدنا من أن نتمسك بروحانياتنا وبخيالنا ، وهى فى رأيهم أصول مقوماتنا وكياننا ، وحين يتحدث المستشرقون هذا الحديث تكاد تلمس فى ألفاظهم الاستغراق فى حبنا ، والاستماتة فى الدفاع عنا ، وهم يقصدون بالروحانيات « الكشف الباطنى والتجرّد عن المادة » ، أما « التفكير العقلى القائم على المشاهدة الحسية والتجربة العملية والنظرة الموضوعية » فهى أمور من خصائص الأمم الغربية التى ضلت الطريق وأفسدتها

الحضارة ! ! بل إنهم ليتظاهرون بالدعوة إلى أنه « لا سبيل إلى إنقاذ الحضارة البشرية من التفسخ والانهيار إلا بانتصار روحانية الشرق » ويؤكد هذا الفريق من المستشرقين حديثهم العاطفي الودي بأعمال تدعم حبهم لنا وتجردهم في خدمتنا ، فتراهم يضيعون كثيراً من الوقت وينفقون كثيراً من المال في نشر بعض تراثنا القديم ، فإذا نظرت فيما ينشرون وجدت أكثره من مؤلفات المتصوفين وخاصة الحنود . وقد جاء مندوب عن إحدى المؤسسات الأجنبية منذ بضع سنوات إلى الجامعة السورية بدمشق ، وتحدث عن أهداف مؤسسته واستعدادها لمساعدة المشروعات الثقافية في جميع البلدان . فلما ذكر له بعض الأساتذة حاجة الجامعة السورية إلى المختبرات والوسائل الفنية والأدوات العلمية أخذ المندوب يصطنع المعاذير ويعدد الصعوبات ، ويعلق أمر المساعدة على موافقة مجلس إدارة المؤسسة . ولكن الحديث بعد ذلك انتقل إلى موضوع التصوف الإسلامي ، فلم يتردد المندوب لحظة في قطع الوعود بالمساعدة إذا تأسس معهد للدراسات يعنى بهذا الموضوع الخطير [1] .

وقد ألف برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة لندن كتاباً في سنة ١٩٥٠ عنوانه « العرب في التاريخ » ، قرّظه أحد الأعلام من أساتذة التاريخ في جامعاتنا ، وأشاد بروح المؤلف العلمية المحايدة التي أنصفت العرب . والقارئ للكتاب يدهش كيف لم يتنبه مؤرخنا العربي

---

(١) انظر الفصل القيم الذي كتبه الدكتور كامل عياد بعنوان « مستقبل الثقافة في المجتمع العربي » في كتاب « العالم العربي » ج ٢ ، ص : ١٤٣ — ١٧٦ ، من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٣ .

الكبير لما بثه المؤلف من سموم فى خلال تظاهره بالمنهج العلمى . لقد مهد المؤلف بين يدى كتابه بفصل استهله بالتساؤل عن « من هو العربى » ؟ ثم بحث هذا التساؤل من ناحية الدم والعنصر ، واللغة ، والدين ، والتاريخ ، والجنسية فى جوازات السفر فى أيامنا هذه ؛ وانتهى من كل ذلك إلى غايته الحقيقية وهى التشكيك فى وجود أمة موحدة تدعى الأمة العربية لها كيانها ومقوماتها . وهو ما لم يصرّح به تصريحاً ، وإنما اكتفى بالإيحاء والتلميح من خلال سرد يبدو فى ظاهره أنه بحث علمى مجرّد بل بحث علمى ينصف العرب ! ! (١)

ومستشرق آخر يعد رأساً بين المستشرقين ليومنا هذا ، وهو مشهور فيما يؤلف عن المسلمين والعرب بتحرى المنهج العلمى ، وأحاديثه كلها تفيض حباً للعرب والمسلمين ودفاعاً عنهم ، حتى ليكاد المرء يحس بأنه قد تجرّد للعلم وحده حقاً . هذا المستشرق ألف فى سنة ١٩٤٠ كتاباً عنوانه « العرب » وهى رسالة صغيرة ولكنها مركزة تركيزاً شديداً جمع فيها فى فصول متعاقبة الخلاف والفروق بين العرب من حيث : الأصل والجنس ، واللغة ، والدين ، والمذاهب ، والموقع الجغرافى ، ووضح ما فى نفس كل فريق على الآخر ، ونشأة هذه الخلافات ، فكأنما أراد أن يكون البحث مفتاحاً يضعه بين يدى قومه ليستطيعوا استخدامه فى استغلال هذه الخلافات والفروق وتوسيعها .

---

(١) انظر الفصل الأول من كتاب « أزمة الفكر العربى » للدكتور إسحق موسى الحسينى — دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٤ ففيه تعقيب على الكتاب المذكور .

ولا يتسع المجال لإيراد الأمثلة ، وإنما أردت أن أوضح أن هؤلاء المستشرقين لم يكونوا كلهم يواجهوننا بهجومهم السافر ، وإنما كان فريق منهم يتظاهر بالإنصاف والحيدة والتجرد للعلم وحده حتى يستطيع أن يغلف آراءه تغليفاً يجعلها مستساغة مقبولة لدينا ، بل يجعلنا نتبناها ونعتنقها ؛ هكذا خدعنا .

وقد نجحوا فى خطتهم ، واستطاعوا أن يتغلغلوا إلى أعماق جذورنا الأولى : جذور كيان أمتنا ومقوماتها ، ويزعزعوها . ولعلنا جميعاً نعانى فى نفوسنا وعقولنا من نتائج هذه الزعزعة ، فنحن جميعاً من ضحايا هذه التجارب العلمية المقصودة التى انتهت بنا جميعاً إلى الشك والقلق والاضطراب وانتهت بفريق منا إلى الجحود والإنكار والكفر بهذه الأمة : دينها وماضيها ولغتها وتراثها الأدبى . بل لقد صار من بقيت فى نفسه بقية من اعتزاز بهذه الأمة وإيمان بها — يخشى من إعلان اعتزازه والمجاهرة بإيمانه لئلا يوصف بالرجعية والجمود والتأخر .

(٥)

كانت المرحلة الأولى من عمل الاستعمار فى بلادنا تجزئة وطننا العربى الواحد إلى أوطان متعددة ذات حكومات ودول مختلفة لها نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية تعليمية متباينة . ثم كانت المرحلة الثانية إشاعة الشك فى نفوسنا ونشر القلق فى عقولنا وزعزعة إيماننا بمقومات

وجود أمتنا وكيانها من دين ولغة وتراث فكرى وتاريخ مجيد . ثم انتقلوا إلى المرحلة الثالثة — أو لعلهم انتقلوا إلى المرحلة الثالثة فى أثناء عملهم فى المرحلتين الأوليين فسارت المراحل الثلاث جنباً إلى جنب :

مضوا يضعون مكان كل جذر أصيل يقتلعونه جذراً مجتلباً من تربتهم هم ، جذراً صناعياً ، فيه بعض عروق من مظاهر الحضارة والحياة الحديثة وغرسوه فى تربتنا ، وألقوا فى روعنا ألا حياة لنا إلا إذا استمددنا الغذاء والماء عن طريق هذه الجذور . فرضوا علينا مظاهر نظم حياتهم ، مظاهرها فقط : فى نظام الحكم ، وفى نظام التعليم ، وفى الحياة الاجتماعية . ودأبوا فى صمت وسكون وصبر يعملون عملاً مستمراً خفياً حتى جعلوا منا خلقاً مشوّها : نفكر بعقول مستوردة ، ونحسّ بنفوس مستعارة ، ونرى بأعين زجاجية ، ونسمع بآذان صناعية . . . أصبحنا شيئاً عجيباً ، عجزنا عن أن نكون أنفسنا ، وقصرنا عن أن نكون غيرنا ، وبقينا هكذا ضائعين حائرين مضطربين ، أشبه بذلك الغراب الذى أراد أن يحاكى مشية الطاووس فنسى مشيته وعجز عن محاكاة الطاووس . ما أكثر الغربان فينا !

وفى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية : مضوا يقدمون لنا مشكلات مقصودة مفتعلة ، تصنع من أجلنا صناعة دقيقة ، على أيدى مهرة مختصين ، تستخدم فيها أحدث وسائل العلم بعد تجارب عدة ودراسات طويلة ، حتى إذا تمّ صنعها غلفت تغليفاً أنيقاً ، وربطت بأشرطة ملونة زاهية ، وصدرت إلينا بضاعة شائقة رائجة ، لا تكاد تصل أسواقنا حتى تتهافت عليها فى جد واهتمام يستغرقان جهدنا ويستنفدان طاقتنا ، فإذا ما أوشكنا أن نستهلكها ، وقاربت النفاد ، كان المهرة المختصون قد

أتموا صنع بضاعة جديدة — مشكلات جديدة — أحدث من الأولى ، وأتمّ تكويناً ، وأجمل طرازاً ، فلا يكادون يقذفون بها إلينا حتى نتهافت عليها من جديد .

إن أكثر مشكلاتنا التى نعانيها اليوم وتغتذى منا وتقتات علينا حتى لتكاد تستنزف دمنا ، ليست مشكلات أصيلة ، منبثقة عن مجتمعنا ، ناجمة من حاجاتنا الحقيقية ، وإنما هى مشكلات مفتعلة مزيفة ، تلقى إلينا إلقاء متعمداً . لنتلهى بها ، ونتوجه إليها ، وننصرف عن إدراك مشكلاتنا الحقيقية الأصيلة ، فتكون بذلك معوقات فى طريق سيرنا تستنفد جهدنا فى محاولة التغلب عليها ، وتستهلك طاقتنا فى تذليلها وتبديدها .

وقد بلغ هؤلاء الصناع المهرة منزلة رفيعة من البراعة والإتقان فى التمويه والخداع ، حتى إنهم أحياناً ليعرفون أن الأزمة قد بلغت مداها ، وأن غليان النفوس قد وصل إلى درجة لم يبق بعدها إلا الانفجار ، فسرعان ما يقدّمون لنا حلا لإحدى هذه المشكلات ، صنعوه هم أيضاً صناعة ، ودبروه تدبيراً ، بحيث يكون هذا الحل نفسه — بعد زمن — مشكلة جديدة . ثم يوحون إلينا بالحل إيحاء من بعيد وفى حذر شديد ، بحيث يوهموننا أننا نحن أصحاب الحل ، وأننا قد بذلنا جهداً كبيراً حتى حققنا انتصاراً ضخماً ، وكسبنا حقاً جديداً ، فتهدأ النفوس وتستكين ، بعد أن فرغت شحنتها ، وصرّفت امتلاءها ، ويكونون قد طبقوا علينا وسائل علمهم التجريبى حين يفرّغون شحنة كهربائية ، أو يفتحون صمام الأمن فى المرجل خشية ضغط البخار وانفجار الإناء .

(٦)

ولم يكتفوا بذلك ، لم يكتفوا بالمشكلات التى تنجم بالضرورة عن المرحلتين الأوليين من عملهم الدؤوب . فقد وجدوا فينا بقية من جذور عميقة ، ضاربة فى باطن الأرض ، لم يستطيعوا اقتلاعها من غير أن يسقط جذع الشجرة القائم على سطح الأرض ، وهم لا يريدون لهذا الجذع أن يسقط ، وإنما تقتضى مصلحتهم أن يبقى قائماً أجوف فى الفراغ ، ووجدوا فى هذه الجذور الباقية العميقة الضاربة فى باطن الأرض وفرة وفيرة من الخصب والحياة والنماء ، ستزكو وتمتد وتستطيل وتتكاثر فتعوضنا عما قلقلوه وعما اقتلعوه . ثم وجدوا أن ما أشاعوه فينا من شك وقلق واضطراب — على خطره — لم يستطع أن يهوى بنا جميعاً إلى الجحود والكفر والإنكار وراعهم ما أبصروا فينا من تفتق الوعى ، وانسكاب النور ، وتجمع قوى الوحدة والنضال . . فبدأوا عملهم فى المرحلة الرابعة ، جاؤوا بصخور صلدة ووضعوها تحت هذه الجذور الباقية ومن حولها لتوقف نموها ، وتعوق امتدادها ، وتشل حركتها ، وتعطل قوة الحياة فيها ، فكانت قضية فلسطين وخلق إسرائيل الصخرة الكبرى التى ألقوا بها . قضية فلسطين مولود غير طبيعى ، أى : أنها لم تكن نتاج حاجة حقيقية فى داخل فلسطين نفسها ، بل لم يكن وضع اليهود فى الداخل يتطلبها ، وإنما هى مؤامرة

مصنوعة مدبرة ، أتمّ الاستعمار صنعها وتدبيرها منذ نحو أربعين سنة — على أنها حلقة فى سلسلة لا تنفكّ إلا حين تدعو الحاجة إلى ذلك ، حين يحسّ الاستعمار أن مراحل عمله السابقة كلها لم تأت بالنتائج المنشودة ، ولذلك بقيت هذه الخطة فى مراحل الإعداد والتهيئة والتغيير والتعديل والتربص بالفرص إلى أن نفذت بعد وضعها بنحو ثلاثين سنة ، لتستهلك قوانا وتفرّغ طاقتنا وتستنفد ماء الحياة فينا .

ونجحوا إلى حين ، ثم أدركوا أن كل آثار مؤامراتهم ودسائسهم موقوتة ، وهالهم ما رأوا من النذر بانبعاث أمة العرب وانطلاقها ، وتنبهها لكل ما يراد بها ، وأصبحت خططهم عارية مكشوفة لا تنطلى على الوعى المتفتح ، فلم يجدوا مفراً من العدوان السافر الغادر ، فكان الهجوم الآثم الأخير .

إن قوة الصراع فينا لتزداد وتتجمع فى عناد وتصميم لأن إرادة الحياة فينا أقوى من وسائل الإفناء عليهم . ومن أجل هذه القوة الكامنة الهائلة فى إرادة الأمة العربية للبقاء والحياة — سيزيدون فى كل عام من صناعة المشكلات — المستترة والسافرة ، ويحوّرون بعض صورها ، ويبدلون مظاهرها وأساليبها . ولكن وعينا كفيل بفضح جميع دسائسهم وتفويت الفرص عليهم ، ووحدة نضالنا كفيلة بأن تكتب لنا النصر حتى تتسلم أمتنا شعلة الحضارة من جديد وتستأنف أداء رسالتها .

القومية العربية والاستعمار الفرنسي

بقلم

حبيب جاماتي

ما هي الدولة الاستعمارية التي فاقت غيرها إمعاناً في مناصبة الشعوب العربية العداء ؟ إنجلترا أم فرنسا ؟

ومن هم ألد أعداء العرب ، وأعند خصوم القومية العربية ؟ الإنجليز أم الفرنسيون ؟

الرد على هذا السؤال يؤدي إلى الحيرة : فالفريقان في هذا المضمار سواء يتزاحمان ، ويتسابقان ، وكل منهما يعلل النفس بأن يكون أشد تنكيلاً بالعرب ، وأبعد ضرراً بالقومية العربية ، من الفريق الآخر . . .

والفارق الوحيد بين إنجلترا وفرنسا في هذا الصدد ، يتناول الأسلوب فقط ، لا الهدف والغرض . فالفرنسيون أوفر رعونة وأكثر ضجيجاً من الإنجليز ، والإنجليز أوفر رياء وأكثر نفاقاً من الفرنسيين .

ومن جهة أخرى ، نرى الفرنسيين قد بسطوا نفوذهم ، وفرضوا حكمهم في غفلة من الزمن ، وبسبب التخاذل الذي انتاب الشعوب العربية ، على رقعة من بلدان العرب أوسع من الرقعة التي أخضعها الإنجليز لنفوذهم وحكمهم .

والحديث هنا يقتصر على الفرنسيين . وعلى فرنسا والاستعمار الفرنسى بالنسبة إلى القومية العربية ، قبل أن تصحو من سباتها ، وفى خلال نهضتها وبعد أن انطلقت فى حلبة الرقى والتحرر والسيادة . . .

لنمر بسرعة على الحروب الصليبية التى كان فيها العامل الدينى يلعب الدور الأول . وعلى الصراع الذى قام فى وقت من الأوقات ، وخلال حقبات طويلة ، بين الفرنسيين الراغبين فى السيطرة على البحر المتوسط من ساحله الشمالى نزولاً نحو الجنوب ، وبين العرب الراغبين فى السيطرة على هذا البحر من ساحله الجنوبى صعوداً نحو الشمال .

لنمر بسرعة على ما تخلل ذلك الصراع الرهيب من حوادث حربية وسياسية ، لكى نصل إلى بداية العهد الذى يمكن أن نسميه « عهد الاستعمار » وهو الذى بزغ فجره ، وطلع نجمه ، فى خلال القرن الثامن عشر للميلاد ، بعد أن فتحت أمام الغرب سبل المواصلات مع الشرق ، وزادت شهية الغربيين لالتهام الخيرات التى كانت فى ذلك الوقت من نصيب الشرقيين . . .

وضعت الأمم الأوروبية إمكانياتها الحربية فى خدمة مطامعها التجارية . وتطلعت كل دولة من دول الغرب القوية إلى بقعة من بقاع الشرق حبتها الطبيعة بمركز ممتاز أو بثروة مرموقة . وراحت تسعى لاحتلالها قبل أن تمتد إليها مطامع دولة أخرى . . .

وفى ذلك الوقت ، كان العثمانيون يسيطرون على أقطار عديدة وأقوام

متنافرين . وكانت البلدان العربية كلها خاضعة لحكم السلطان العثمانى الفعلى أو الإسمى ، بما فيها سواحل أفريقيا الشمالية ، التى تتطلع إليها فرنسا وتتبارى معها فى حلبة السباق لبسط النفوذ والتحكم فى البحار . . .

وكان الإنجليز من ناحيتهم يسعون للسيطرة على طريق الهند حيث ثبتوا أقدامهم . وأراد الإمبراطور نابليون الأول ، منذ أن كان لا يزال قائداً من قواد الثورة الفرنسية ، وقبل أن يضع التاج على رأسه ، أن يسبق الإنجليز ويقطع عليهم ذلك الطريق ، تمهيداً لانتزاع الهند منهم . . .

قام بونابرت بحملته على مصر فى سنة ١٧٩٨ . وكانت الحملة موجهة ضد تركيا فى الواقع ، وضد الإنجليز فى الخفاء . . .

تلك الحملة ، فى نظر المؤرخين ، هى بدء الحروب الاستعمارية فى البلدان العربية ، التى كانت لا تزال ، فى ذلك الوقت ، تابعة للإمبراطورية العثمانية . . .

سقط نابليون ، وانهار عرشه ، بعد أن أفلتت منه مصر وبقيت جزءاً من الدولة العثمانية ، وتولى الحكم فيها محمد على باشا وأسرته من بعده . وعادت الملكية إلى فرنسا فراح المسؤولون فى حاشية الملك يبحثون عن مشروعات يشغلون بها الرأى العام فضلاً عن القوات المسلحة . ومن هنا عاودت الفرنسيين الرغبة فى شن حروب استعمارية وكسب ممتلكات وراء البحار . . .

تطلعوا حولهم ، ونشروا أمامهم خريطة العالم . فرأوا إن أقرب البلدان التى يمكن الاعتداء عليها ، والتى لا تملك قوة كافية للدفاع عن نفسها ،

تقع على الساحل الإفريقى الشمالى ، قبالة الساحل الفرنسى من الجنوب ..
ورأوا أن الجزائر أقل البلدان الأفريقية الشمالية مناعة ، فقرروا مهاجمتها .

وافتعلوا حادثاً أصبح منذ ذلك الوقت نموذجاً للدهاء والمكر والتحرش فى مضمار السياسة القائمة على العدوان . فقد تطاول قنصل فرنسا فى الجزائر على حاكمها ، فضربه الحاكم بمنشة كان يحملها ، وكان هذا كافياً لكى ترسل فرنسا إلى الجزائر حملة عسكرية لاحتلالها ، بحجة غسل الإهانة التى لحقت بها فى شخص قنصلها الوقح !

كان ذلك فى سنة ١٨٣٠ فى خلال حكم الملك لويس فيليب . وقد أحرز الفرنسيون فى بادئ الأمر سلسلة من الانتصارات . ولكن القبائل العربية فى الجزائر وحدت كلمتها ، وجمعت صفوفها ، بقيادة البطل الخالد الأمير عبد القادر بن محى الدين ، ونظمت المقاومة ، فاستمرت الحرب بين الوطنيين المجاهدين والغرباء المعتدين سنوات عديدة . .

فحرب الجزائر التى شنتها فرنسا فى عام ١٨٣٠ كانت إذن أول حرب استعمارية ينطبق عليها هذا الوصف ، ذهب ضحيتها شعب عربى ، ومنيت بأضرارها « القومية العربية » الناشئة فى ذلك العهد .

فالأمير عبد القادر الجزائرى لم يحارب فرنسا الاستعمارية بوصفه حاكم الجزائر من قبل السلطان العثمانى بل بوصفه زعيم الشعب العربى فى الجزائر ، وقائد المجاهدين المدافعين عن قوميتهم العربية . فهو ، من الناحية التاريخية أول زعيم عربى قاوم الاستعمار الغربى ، المجسم فى الحملة الفرنسية على الجزائر .

ومن أغرب ما حدث ، قبيل قيام فرنسا بحملتها تلك ، أن دارت مفاوضات بين لويس فيليب ، ملك فرنسا ، ومحمد على باشا ، والى مصر للتعاون بين الصديقين فى احتلال الجزائر ، على أن يقتسما الغنيمة فيما بينهما ولكن محمد على امتنع فى النهاية عن عقد تلك المحالفة التى — لو تمت — لجلبت العار على مصر بسبب حاكمها الغريب ، الذى فضل الزحف على سوريا لانتزاعها من الترك لحسابه الخاص ، على الزحف إلى الغرب نحو الجزائر لاحتلالها بالاشتراك مع فرنسا .

ومنذ أن نجحت فرنسا فى احتلال القطر العربى الباسل ، أو على الأصح فى احتلال سواحله ومواصلة القتال للتغلغل فى داخله ، منذ ذلك الوقت ، أصبحت فرنسا حاملة لواء العداء ضد العرب ، وأدخلت فى صلب سياستها الخارجية ، خطة استعمارية واضحة ، ترمى إلى انتزاع البلدان العربية من أصحابها ، بلداً بعد بلد ، ومنع القومية العربية من التنفس والتبلور والانطلاق من عقالها .

فبعد مرور نصف قرن على اجتياح الجزائر ، وقبل أن تنتهى فرنسا من احتلال البلاد كلها ، وإخضاع قبائلها بالقوة ، نزل الجيش الفرنسى فى تونس ، وفرض عليها معاهدة الحماية فى سنة ١٨٨١ .

كانت ألمانيا قد هزمت فرنسا فى الحرب المشهورة سنة ١٨٧٠ . وخرجت فرنسا من تلك الكارثة مهيضة الجناح جريحة مفلسة . وأراد المسؤولون مرة أخرى أن يشغلوا الرأى العام بحادث يحول أنظاره إلى الخارج ، فافتعلوا الأسباب لإرسال حملة استعمارية إلى الصين الهندية ، ثم لإرسال

حملة أخرى إلى البلاد التونسية .

راحت الجزائر ضحية الطمع الاستعمارى الفرنسى بعد حرب ١٨٣٠ . وراحت تونس بعدها ضحية ذلك الطمع ، بعد حملة ١٨٨١ .

فقد أراد الفرنسيون أن يثأروا لأنفسهم مما حل بهم من هزيمة وعار على أيدى الألمان ، فانتقموا من شعب عربى مسالم لم يسئ إليهم بل كان فى وقت من الأوقات صديقهم وحليفهم !

وهكذا اعتدى الفرنسيون على القومية العربية مرتين ، فى الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وفى تونس سنة ١٨٨١ ، ولا ندخل فى الحساب اعتداءهم على مصر فى سنة ١٧٩٨ . . .

وظلوا سائرين فى هذا الطريق : طريق العدوان على العرب كلما سنحت لهم الفرصة ، أو كلما أرادوا أن يغسلوا سمعتهم من عار لحق بها على أيدى الغير !

عولوا على أخذ أفريقيا الشمالية كلها ، لأن هذا يضمن لهم السيطرة على البحر المتوسط ، وبهذه الوسيلة وحدها يكبحون جماح مزاحميهم الإنجليز أسياد البحار . . .

ولكن الإنجليز قوم يساومون على كل شىء . . .

فساومهم الفرنسيون وتفاهم الفريقان على اقتسام مناطق النفوذ ، على أن يحولوها فيما بعد إلى مناطق احتلال واستعمار .

وكانت المساومة على حساب القومية العربية . . .

القومية العربية الناشئة الصاحية من سباتها فى مصر ، وفى تونس

والجزائر ، وفى المغرب الأقصى ، ثم فى قلب الدولة العثمانية ، فى سوريا ولبنان والحجاز . . .

وقف اللصان ينظران ، ويرقبان ، ويضعان الخطط : اللص الفرنسى الذى أخذ تونس والجزائر ويطمع فى المزيد ، واللص الإنجليزى الذى أخذ مصر فى سنة ١٨٨٢ ويطمع فى الاستئثار بها دون أى منافس .

وتم الاتفاق على العمل معاً فى سنة ١٩٠٤

أطلقت فرنسا يد إنجلترا فى مصر والسودان ، وأطلقت إنجلترا يد فرنسا فى الشمال الإفريقى كله ، بما فيه المغرب الأقصى .

وبدأ الفرنسيون يتدخلون فى شؤون الدولة المغربية المستقلة ، وتحول تدخلهم إلى احتلال ، وأسفر الاحتلال عن فرض معاهدة الحماية فى سنة ١٩١٢ .

ولكن اتفاقية ١٩٠٤ كان لها ذيول ، وكان لها توابع !

قامت الثورة العربية الكبرى ، على الدولة العثمانية ، بقيادة شريف مكة الحسين بن على الهاشمى ، سنة ١٩١٦ . فحالف الإنجليز العرب وحالفهم أيضاً الفرنسيون . ولكن هؤلاء الحلفاء ، خانوا العرب بعد انهيار الدولة العثمانية ، واقتسموا بلادهم التى كانوا قد تعهدوا بأن يساعدوهم على جعلها دولة مستقلة .

الثورة العربية كانت مظهراً من مظاهر القومية العربية الناهضة . وهذه القومية كانت ، فى نظر الفرنسيين ، نذيراً خطراً يهدد سياستهم الاستعمارية .

وهذا تآمروا مع الإنجليز . فاحتل هؤلاء العراق وفلسطين ، واحتلوا هم سوريا ولبنان . وعلاوة على هذا الاحتلال ، جاء الإنجليز باليهود وأحلوهم فى فلسطين ، بحجة إنشاء وطن قومى لهم عملاً بوعد بلفور الصادر سنة ١٩١٧ .

وهكذا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، وفى أقل من قرن كامل ، كان الفرنسيون بفضل عدوانهم المتواصل على القومية العربية ، قد احتلوا من أوطان العرب الجزائر ، وتونس ، والمغرب ، وسوريا ، ولبنان . وكان الإنجليز شركاؤهم فى التآمر والعدوان ، قد احتلوا مصر والسودان وعدن والساحل الجنوبى لجزيرة العرب وإمارات الخليج العربى والعراق وفلسطين !

ولكن القومية العربية لم تخمد أنفاسها تحت تلك الضربات المتوالية . فقد واصل العرب جهادهم فى سبيل النهوض والتحرر ، بالوسائل السلمية تارة ، وبالعنف والقوة تارة أخرى . ولم تكن للاستعمار الكلمة الأخيرة ، كما كان المستعمرون يأملون ويعتقدون .

ثارت الأقطار العربية المحتلة كلها على الحكم الأجنبى والطغيان الاستعمارى ، كل منها بدوره : المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وسوريا ، ولبنان ، قامت فى هذه البلدان ثورات ضد الفرنسيين — وقامت أيضاً ، من ناحية أخرى ، ثورات ضد الإنجليز فى الأقطار التى فرضوا عليها حكمهم ، ولم يشذ بلد عربى واحد ، ولم يتردد شعب عربى واحد عن الالتجاء إلى الثورة ، كلما فشلت مساعيه السلمية ، للتخلص من المستعمر واسترداد الحرية الغالية .

ثورات العرب على الفرنسيين سلسلة متواصلة الحلقات :

فى الجزائر لم تنقطع الثورات منذ بدء الاحتلال ، بعضها محلى ، وبعضها عام ، واليوم ، بعد ١٢٦ سنة على نزول الفرنسيين فى الجزائر ، تتحداهم القومية العربية ، وتندلع فى جميع أنحاء البلاد نيران ثورة تذكر الفرنسيين بأهوال المعارك التى خاض غمارها أبطال عبد القادر الجزائرى الميامين !.

وفى تونس ظلت الثورات تهب وتهدأ . ولا تهدأ إلا لكى تهب من جديد ، واشتدت وطأة المقاومة الوطنية . وهبت القومية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، منذ سنة ١٩٤٥ ، مما أرغمت فرنسا معه على الاعتراف باستقلال تونس وإنهاء نظام الحماية فيها !

وفى المغرب ، تكلل جهاد الوطنيين بالنجاح ، وأسفرت ثوراتهم العديدة عن نتائج انتقل بها المغرب من مصاف بلد خاضع للحماية ، إلى مصاف دولة مستقلة ذات سيادة !

وسوريا ولبنان خلعا نير الحكم الفرنسى بعد الحرب العالمية الثانية . فقد ثار لبنان فى سنة ١٩٤٣ واستقل . وثارت سوريا مرة بعد مرة ، بلا كلل ولا ملل ، وكانت ثورتها الكبرى فى سنة ١٩٢٥ ، وثورتها الأخيرة فى سنة ١٩٤٥ ، فاستقلت أيضاً . . .

كل بلد عربى حل فيه الفرنسيون مستعمرين ، باسم الاحتلال ، أو الحماية ، أو الوصاية ، أو الانتداب ، ثار إذن عليهم ، واسترجع حريته منهم . ولا تزال الجزائر تكافح وتناضل فى هذا السبيل . وسوف تسترجع

حريتها أيضاً ، كاملة غير منقوصة .

وأول قطر عربي استرجع استقلاله من فرنسا ، لبنان . وتبعته سوريا وأنشئت جامعة الدول العربية فى مصر ، سنة ١٩٤٥ .فكانت فرنسا أول دولة ناصبتها العداء ، لأن الجامعة العربية كانت مظهراً ملموساً ، وتطبيقاً عملياً ، ليقظة « القومية العربية » وانطلاقها نحو أهدافها النهائية : التحرر التام ، والوحدة الشاملة .

وهذا ما لا تريده فرنسا لأنه ينطوى على القضاء على استعمارها بجانب من العالم العربى .

ولهذا حاربت الدول العربية مجتمعة فى هيئتها الجديدة ، بعد أن حاربتها متفرقة ، وكلا منها على حدة .

وتجلت ضغينة فرنسا ، وبان حقدها ، وبلغ عداؤها الذروة . فى تآمرها الأخير مع إنجلترا ودولة اليهود الدخيلة فى فلسطين المحتلة ، على الغدر بمصر وإرغامها على الخضوع لإرادة الدولتين الاستعماريتين ، ولمطامع صنيعتهما الصهيونية .

طعنات تلقتها القومية العربية من فرنسا ، خلال ما يزيد عن قرن من الزمان ، كان الذين سددوها إلى صدر العروبة يظنون أنها نافذة قاضية . ولكن العروبة ظلت بخير تعاند القدر وتصارع المعتدين . . .

طعنات متوالية متواصلة . . .

طعنة فى الجزائر سنة ١٨٣٠

طعنة فى تونس سنة ١٨٨١

طعنة فى المغرب سنة ١٩١٢

طعنتان فى سوريا ولبنان سنة ١٩١٩

طعنات عديدة فى هيئة الأمم المتحدة ضد المطالب العربية وقضايا العرب العادلة .

طعنات بعضها يسنده العنف ، وبعضها قائم على الحقد والغدر ، وبعضها ينطوى على التشفى والخيانة ، وكلها فى آن واحد طعنات موجهة إلى العدل ، والإنصاف ، والحق ، والمثل العليا التى خانها الغرب وخرج عليها ، فاحتضنها الشرق وغذاها بالمهج والأرواح !

وتلك الطعنات الفرنسية التى تتابعت خلال قرن وأكثر ، ومعها الطعنات الإنجليزية التى لا تقل عنها فظاعة وغدراً ، كل تلك الطعنات أيا كان نوعها ، وشكلها ، ومداها ، قد ألهبت الشعور فى الصدور ، وأحيت الآمال بين الضلوع ، وساهمت فى إيقاظ العرب من غفوتهم ، وبدل أن تخنق القومية العربية فى مهدها — كما كان يريد المعتدون الضاربون — فعلت عكس ذلك ، فعجلت ترعرع القومية العربية ، وتقويتها ، وفوزها ! . . .

فالقومية العربية الآن ، وبعد كل ما حدث ، قد تغلبت على الاستعمار ، وزحزحته عن معاقله ، وقوضت حصونه ، وهدمت أسواره ، وطاردته فى الميدان حيث يتراجع ويتقهقر نحو الهوة السحيقة التى لا بد له

من السقوط فيها ، عاجلاً أو آجلاً . . .

بل عاجلاً لا آجلاً . . .

فهو الآن ، فهو اليوم ، فهو فى هذه الساعة ، يتعثر ، ويترنح ، ويلهث . . . وهذا مقدمة للهزيمة النهائية ، وللسقطة التى لاقيام بعدها ! .

obeikandl.com

القومية العربية والاستعمار الإنجليزى

بقلم

عبدالمنعم خلاف

نهاية كالبداية

نكتب هذا الفصل وعقولنا وقلوبنا لا تزال فى الظلال السوداء لآخر معركة من معارك الغدر والنذالة بين القومية العربية وبين الاستعمار الإنجليزى . وهى معركة لا شك تعتبر بدء الانحسار والارتداد الحقيقى لمدّ الموجة الاستعمارية التى غمرت الشرق وقضت على الإمبراطوريات الإسلامية الثلاث الأخيرة ، وهى إمبراطورية المغول فى الهند ، والإمبراطورية الفارسية فى هضبة إيران ؛ والإمبراطورية العثمانية فى أوربا والشرق الأدنى والشمال الأفريقى . فعوقت النمو الطبيعى للحضارة فى الشرق ، وقضت على علاقات الشرف وحرمة المواثيق الدولية ونبل الفروسية وقيم الأخلاق ، ورأت بها الأقوام « المتخلفة » وجه المدنية الغربية فى إطار من الجفاف الروحى والفساد الخلقى وإشاعة الشهوة والجريمة والاغتصاب ، فنفرت منه واستعصمت بفطرتها وبساطتها .

وكما أقبلت الموجات الاستعمارية الأولى تحت ستار من التلصص والتخفى والتمويه والانقضاض الغادر على أجزاء تلك الإمبراطوريات ،

واقتطاعها وغصبها ، كذلك أقبلت الغزوة الأخيرة فى صورة مجددة من تلك القرصنة الأولى التى بدأ بها عهد الاستعمار ، وخاصة الإنجليزى . . .

وقد انهارت بالغزوة الأخيرة تلك الأكذوبة التى طالما اختلقوها ورددوها لتمويه الاستعمار وتبريره وفلسفته وإبرازه على أنه رسالة تاريخية قام بها « الرجل الأبيض » للتمدين وإنهاض الأجناس والأقوام « المتخلفة » كما يحلو لهم تسميتها .

أجل ، ظهر الاستعمار فى نهايته كما ظهر فى بدايته : قرصنة وغدراً ونذالة وخروجاً على القوانين الدولية وقيم الشرف والدين والحضارة . . فإذا (إيدن) الجنتلمان (زعموا ! !) ابن النصف الثانى من القرن العشرين ، تبدو فيه طبيعة قومه القراصنة القدامى الذين بنوا إمبراطوريتهم بالغدر والتخفى والانقضاض على أرض الأقوام المسالمين الآمنين فى القرن الخامس عشر . .

وكأنما أرادت الأقدار أن يستعرض الناس بهذه الغزوة الأخيرة كل الآلام والجرائم والشناعات التى ارتكبها المستعمرون ، فينظروها تحت مجاهر القرن العشرين ، فى معركة فاصلة اشترك فيها أعتى وأخبث قوى الاستعمار على أرض قناة السويس وما جاورها ، وهى الشريان الأكبر الذى طالما أدى خدمات للمستعمرين وجنايات على شعوب الشرق .

ولا شك أن الاستعمار يترنح الآن للسقوط بعد الضربات التى وجهها إلى نفسه وكشف بها عن وجهه القديم وحمل العالم على التعجيل بإزهاقه حتى يستقيم طريق السلام والعدالة .

استحضار روح العملاق العربى

ضع أمام عينيك أيها القارئ خريطة العالم، وسرحهما فيها بنظرة هذا الزمان وأهله، وانظر مواقع الوطن العربى الأكبر ومراكزه وغلاته ومنافعه وطبائع أجوائه، وإشرافه على الطرق العالمية البرية والبحرية والجوية واتصاله بالعالم القديم والعالم الحديث، إلى آخر ما هنالك . . . فماذا تجد؟ إنك تجد طلعة رائعة من طلعات الطبيعة! تشرف منها القارة الكبرى العجوز (آسيا) والقارة العذراء السوداء (إفريقية) والقارة البيضاء (أوربا) على ملتقى الحضارات، ومعابر التجارات، وأسواق الآراء والمعتقدات، ومعارض الألوان والألسنة والأجناس؛ تود كل الأمم أن يكون لها مواضع أشبار هناك على هذا الشارع التاريخى الأعظم (البحر الأبيض المتوسط) الذى لا بد أن تمر منه دائماً مواكب الحضارة قديمها والحديث .

إنك تجد جنساً واحداً فى رقعة واحدة يأخذ بعضها بحُجَز بعض، وتؤلف سلسلة متشابهة الحلقات من الديار والديّارين الذين أنزلهم الله فيها منذ آلاف السنين : فاستقروا وأثاروها وعمروها ونقلوا من سهولها سهولة أخلاقهم مع محبيهم ومنصفيهم، ومن أوعارها وعورة أخلاقهم مع شانئيهم وظالميهم .

إنك تجد « الوجود العربى » كطائر يجثم جسمه فى مصر والسودان، ويمتد جناحه الأيمن إلى هضبة إيران وجبال كردستان، ويشرف رأسه على

obeikandi.com

الأنضول وجبال طوروس، ويمتد جناحه الأيسر على الشمال الإفريقى كله وقلب القارة العذراء .

وقد هاض الاستعمار الإنجليزى مجثم الطائر وجناحه الأيمن ، وهاض الاستعمار الفرنسى جناحه الأيسر حين كان حبيساً فى شبكة الإمبراطورية العثمانية التى جمدت حركته وشلت نشاطه بعد أن أدى دوره الأول من (المدينة) ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة فى رسالة التهذيب والتحضير والتمدين . . .

عقوق

وكما أيقظ أقواماً من التتار والترك فكانت العاقبة أن قضوا على نشاطه ودوله فى المشرق إلى حد كبير ، كذلك أيقظ أقواماً من الغرب فكانت العاقبة أن أقبلوا على ديار غازين ناهبين مدمرين حاقدين إلى الحد الأكبر . .

طابع البيئة

ولأن الإنسان هو دائماً ابن البيئة والمكان ، كان العرب القدماء والمحدثون تجاراً وبحارة ووسطاء تجارة وملاحة بين الشرق والغرب ، منذ سكنوا تلك المعابر البرية والبحرية بينهما ؛ فكان العرب الجنوبيون ، أعنى سكان السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ، وهم اليمنيون والحضارمة والعُمانيون ، وكان العرب الشماليون ، أعنى سكان السواحل الشمالية للجزيرة وما جاورها وهم السوريون والمصريون ، ينقلون تلك التجارات لأنفسهم ولغيرهم من الشعوب الشرقية

والغربية على سفن البحر وسفن البر : الإبل ، يسلكون بالأولى طرقاً عرفوها على أمواج البحار ، ويسلكون بالثانية طرقاً مهدوها على أمواج الرمال . وقد وصلوا إلى السواحل القاصية من آسيا الجنوبية وأرخبيلاتها وجزر محيطاتها ، فعرفوا مصادر ثروات الشرق ونقلوها وتاجروا فيها .

وقد حمل العرب رسالتهم فى قوافلهم وجيوشهم البرية والبحرية إلى الشرق الأقصى والغرب الأقصى ، وأسسوا دولاً ومراكز إشعاعية وتجارية لثقافتهم ورسالتهم ونشاطهم الاقتصادى . وقد غيروا وجه الأرض بهداية الدين وتمدين العلم وبعملية الخلط والمزج بين حضارات الأقوام والأجناس الشرقية والغربية ، وأخرجوا للدنيا الحضارة الوسطى التى صارت مسيطرة على الناس فيما يسمى بالعهد الوسيط من التاريخ .

وقامت مراكز عمليات الخلط والمزج الحضارى فى الشرق والغرب فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وجزيرة صقلية .

انتقال الشعلة

ومن المراكز العربية فى الغرب تلقى الأوربيون المسيحيون ثقافة العصر ونظم حضارته ، وانتفع الإسبانيون والبرتغاليون بوجه خاص بهذا كله أعظم انتفاع ؛ إذ كانت ديارهم هى المكان الذى تلاقى فيه الشرق والغرب أعظم لقاء ، وجرت عملية الخلط والمزج بجميع عناصرها . ومن أعظم تلك العناصر الملاحة ونقل التجارة بين الشرق والغرب .

فلما استرد الإسبان والبرتغاليون ديارهم من العرب حين أصابهم داء الأقوام ، وهو الفرقة والترف ، نهضوا على ضوء الشعلة الحضارية التى تسلموها من العرب ، وصاروا يبحثون عن طرق ملاحية أخرى غير الطرق القديمة التى تمر ببلاد أعدائهم العرب والمسلمين طبعاً ، ليصلوا منها إلى إلى مصادر تجارة الشرق ، فاتجه الإسبان فى سنة ١٤٩٢ إلى اقتحام المحيط الأطلسى (بحر الظلمات) الذى وقفت ملاحة العرب عند سواحله ، غير محاولات فردية قام بها بعضهم ، ولا شك أنها كانت أمام (كولومبس) حين فكر فى مغامرته للوصول إلى الهند والشرق عن طريق الاتجاه غرباً ، بناء على اقتناعه بكروية الأرض التى درس الإسبان نظريتها على أيدى جغرافيي العرب فى الأندلس وفى صقلية .

واتجه البرتغاليون سنة ١٤٩٧ بمحاولة أخرى للوصول إلى الهند والشرق كذلك عن طريق الالتفاف حول الساحل الجنوبى لأفريقية على يد الكاشف البرتغالى الأول لذلك الطريق (فاسكودى جاما) وفعلا وصلوا إلى سواحل إفريقية الشرقية وساحل ملابار بالهند سنة ١٤٩٨ .

وطبعاً كان لوصول الإسبان إلى كشف أمريكا ، ووصول البرتغال إلى كشف طريق (رأس الرجاء الصالح) الذى لا يمر ببلاد العرب والمسلمين ، ولا يخضع لسيطرتهم ، دوى هائل فى العالم ، وخاصة العالم الأوربى ، والدول الملاحية منه بوجه أخص وقد أثار سُعار التنافس والتسابق بينها على كشف المجاهل فى البحر والبر شرقاً وغرباً ، فاتجهت عماراتها

البحرية غرباً إلى العالم الجديد ، وشرقاً إلى العالم القديم ، وابتدأت القرصنة تتحول إلى عمليات مشروعة مبررة ، وغزوات مدروسة منظمة .

قرون الشيطان

وفى زحام هذا التسابق تأسست الشركات التجارية التى ولدت « الاستعمارية الحديثة » مدفوعة بعوامل وفلسفات وتعليلات اقتصادية ودينية وجنسية اتخذها « الرجل الأبيض » وسيلة لبسط سلطانه وزحفه وانتشـــاره فى أوطان غيره من الأقوام والأجناس . منبعثاً بروح النهضه التحريرية والعلمية المادية التى انتقلت شعلتها من شبه جزيرة أيبريا ، حيث أوقدها العرب ، إلى عواصم أوروبا ومراكزها الهامة ، منتفعاً أعظم انتفاع بما ابتدأ العلم المادى يمده به من أدوات ووسائل ليست عند غيره ، ملتفاً حول الإمبراطوريات الإسلامية الثلاث التى كانت آخذة فى « التقوقع » والانطواء على نفسها ، والاكتفاء بما وصلت إليه من حدود فى زمن لا يرحم من يقف عن التقدم ، غافلة عن عوامل الهدم والنخر التى أخذت تدب فيها ، وعوامل البناء والإحياء التى أخذت تدب فى الغرب ، غريمها القديم المتربص بها ، والقارع أبوابها الخلفية فى البحار الجنوبية بأذرع أخطبوطه الكثيرة الهائلة .

تناكر قديم

وبين دول الغرب ودول الاسلام تناكر قديم ، وود مفقود ، وتعانق وجيع ! هو التعانق بالسلاح فى حروب دامت أكثر من مائتى سنة . أعنى الحروب الصليبية التى ارتد الغرب بعدها مهزوماً ، ولكنه قد تزود منها بتجارب ومعارف ومعلومات وافية عن بلاد غريمه وثرواتها وحضارتها ومثلها وإمكانياتها البشرية والمادية ، كانت هى الأشعة الأولى من فجر نهضته ، مضافة إلى ما كان يقتبسه من أشعة الشعلة العربية فى الأندلس .

فكان الاتجاه الأوربى الاستعمارى الجديد ، وإن كان فى ظاهره اتجاهاً مادياً للاستيلاء على مراكز التجارة ومواد الصناعة التى أخذت تنمو ، إلا أنه كان فى باطنه مشوباً بذكريات الحروب الصليبية ودوافعها ، وهى القضاء على العالم الإسلامى باعتباره العدو التقليدى ، وباعتباره يمثل السد القوى الحائل دون كنوز الشرق ومصادر ثرواته ، إذ كان ينيخ بجسمه العملاق على أبواب الشرق ويسيطر على معابره ، ويتغلغل سلطانه فى أعماقه حتى حدود الصين وجزر الملايو وإندونيسيا ، وتمثله ثلاث إمبراطوريات قوية ذوات جيوش وأساطيل كان لا يزال لها اسم مرهوب فى القرن السادس عشر وهو القرن الأول أو الثانى من العصر الحديث فى اعتبار المؤرخين .

وكان أسبق فرسان الاستعمار فى الشرق البرتغاليون طبعاً ثم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز . . . وهؤلاء هم موضوع حديث هذا الفصل .

عرش على القرصنة

لقد كان ملكهم (هنرى الثامن) أول من بنى لهم أسطولا ، وكان الأسطول أداة مجدهم ، ثم شجعت الملكة (أليصابات) حركات قراصنتهم ومغامريهم . فصاروا يتتبعون سفن الدول التى تقدمتهم إلى الاستعمار والاكتشاف كالبرتغال وإسبانيا وهولندا ويعتدون عليها وعلى المراكز التجارية التى تأوى إليها ، حتى أسسوا (شركة الهند الشرقية) سنة ١٦٠٠ . وفى سنة ١٦٠٧ حصلت هذه الشركة على تصريح من إمبراطور المغول المسلمين فى الهند بإقامة وكالة لها على ثغر (سورات) فى الساحل الشمالى الغربى للهند .

وما زالوا يوطدون مراكزهم التجارية فيها ، ويقضون على المراكز البرتغالية والفرنسية هناك ويحصلون على معاهدات مع المغول والإمارات الهندوكية والإسلامية ، حتى حولوا نفوذهم التجارى إلى نفوذ سياسى . ولم ينقض عام ١٧٨٤ حتى دخلت الهند فى طورها الاستعمارى السياسى والعسكرى ، بعد أن انتهت حرب الاستقلال الأميركية بهزيمة إنجلترا فضاعت منها إمبراطوريتها الأولى .

طلائع مصير العرب

وبدخول الهند فى هذا الطور تقرر مصير البلاد العربية والإسلامية التى تقع على الطريق إليها ، فصارت حركاتها السياسية والعسكرية تحت

رقابة الإنجليز الذين عرفوا قيمة الهند فى تكوين إمبراطوريتهم الثانية ، فأرادوا المحافظة عليها بتحطيم كل من يهدد أو يشوب طريقهم إليها بأذى .

ولما كانت الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية هما أكبر عامل مهدد لسيطرة الإنجليز على الهند بقوتهما وباتجاه مسلمى الهند إلى الخلافة الإسلامية فى تركيا ، وبتفكيرهم الطبيعى فى الاستعانة على الثأر من محطمى سلطانهم ، فقد أدرك الإنجليز ذلك وعملوا على تطويق بلاد الإمبراطوريتين والتسلل إليهما من ذلك الباب الخلفى الخطير وهو الخليج العربى أو الفارسى ، فى خطوات منظمة ، وحرص على استغلال الظروف وأعراض الانحلال فى هاتين الإمبراطوريتين أعظم استغلال ، وعلى إقصاء كل نفوذ أوروبى آخر عن ذلك الخليج وما حوله ، فقضوا على مراكز البرتغاليين الذين سبقوهم إليه بأكثر من قرن ، ولما اقتحمه عليهم الهولنديون بأسطولهم المتفوق وطردوهم منه فترة ، لم يلبثوا أن ضخموا أسطولهم التجارى ، وقووا أسطولهم الحربى وعادوا إليه وحملوا الهولنديين على تصفية مصالحهم فيه فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

الصراع الإنجليزى الفرنسى

ثم جاء دور الصراع الفرنسى الإنجليزى الأكبر بعد الثورة الفرنسية وقيام إمبراطورية نابليون الأول ، وهو صراع على النفوذ الأدبى والنفوذ المادى فى العالم ، وتمثيل سيادة الرجل الأبيض فى بلاد الشرق ، والسبق إلى

الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من إمبراطورية « الرجل المريض » .

ففى مايو سنة ١٧٩٨ اتجه نابليون إلى مصر مبحراً من ثغر طولون ، بعد أن تبين له أن الإمبراطوريات الكبرى فى التاريخ لم تتحقق أو تكتمل عظمتها إلا باستيلائها على مفاتيح الشرق فى مصر والشام ، فجعل هدفه الأول الاستيلاء على مصر تمهيداً لشق قناة فى برزخ السويس لوصل البحر الأبيض بالأحمر وتمكين الأسطول الفرنسى من التحكم فيهما وطرد الإنجليز من الشرق والاستيلاء على مصالحهم التجارية والسياسية فيه .

وقد أرعب الإنجليز احتلال نابليون لمصر واتصاله ببعض أمراء الهند وأمراء جنوب الجزيرة العربية كأمير (ميسور) وأمير (مسقط) مما حمل الإنجليز على الإسراع إلى احتلال المواقع التى تتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ؛ لأخذ الطريق على نابليون إذا أراد التسلل بحراً أو براً إلى الجنوب ، فاحتلوا جزيرة (بريم) التى تتوسط تقريباً مضيق باب المندب واحتلوا الثغر اليمنى « عدن » سنة ١٧٩٩ ، ثم فرضوا بالتدريج حمايتهم على بعض المشيخات التى حولها وتسمى بالمحميات واحتلوا جزيرة (موريس) القاعدة الفرنسية الحربية على الطريق إلى جنوب إفريقية ، كما أسرعوا إلى عقد معاهدتين بالضغط والإرهاب مع أمير مسقط سنة ١٧٩٨ ، سنة ١٨٠٠ لفرض نزول قوات لهم فى مياه مسقط وموانيها على جانبى خليج هرمز ، وحولوا الوكالات التجارية التابعة لشركة الهند إلى وكالات سياسية تتبع حكومة الهند ، وأقاموا أول وكالة سياسية لهم فى بغداد سنة ١٧٩٨ .

أذرع الأخطبوط

ويرجع ظهور نفوذ الإنجليز فى العراق إلى سنة ١٧٦٣ ، حين استعان أحد ولاة الأتراك فى بغداد بسفن وكالة الشركة الإنجليزية فى البصرة لإخضاع القبائل الجنوبية التى صارت تقطع طرق التجارة بين البصرة وبغداد ، وتهزم سلطة الدولة العثمانية هناك . وقد تكررت هذه الاستعانة بالسفن الإنجليزية ، وتوثقت العلاقة بين الولاة الأتراك والإنجليز حتى لقد صار لهم رأى مسموع فى تعيين هؤلاء الولاة ، وصارت لهم مصالح وحقوق فى حماية زوار المزارات المقدسة من الهنود ، والإشراف على توزيع ريع الأوقاف المحبوسة على هذه المزارات ، وحماية التجار وشركات الملاحة الداخلية التى أسسوها لنقل التجارة والبريد فى دجلة والفرات .

وبهذا توصل الإنجليز إلى أن يكون لهم فى العراق مركز أمامى للدفاع عن نفوذهم فى الهند ، وللمراقبة والدس فى قلب الدولة العثمانية ، ولتمهيد الخطط للاستيلاء على العراق فيما بعد ، لما وجدوه من مجالات استعمارية وإمكانيات اقتصادية عظيمة فى أراضيه الخصبة الشاسعة ومواردة المائية الفياضة . فلا عجب أن يتمهدوا فيه لأنفسهم من قبل انهيار الدولة العثمانية ، وأن يتحفظوا فيما بعد لمصالحهم فيه تحفظات استثنائية فى مفاوضاتهم مع الشريف حسين بلسان عميدهم فى مصر (مكماهون) فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

حل نصف المسألة الشرقية

شجعت حملة نابليون على مصر ، واقتحامه قلب الإمبراطورية العثمانية الإنجليز ، وجرأتهم على تجربة حظهم فى مهاجمتها من أبوابها الأمامية بعد تسللهم إليها من الباب الخلفى فى الخليج الفارسى ، وكشفت عن المطامع التى تدور فى صدور الدول الكبرى حولها . ولذلك حاولوا هم أيضاً أن يحتلوا مصر بدورهم بعد خروج الفرنسيين منها بست سنوات ، فجاء أسطولهم إلى رشيد سنة ١٨٠٧ للاستيلاء عليها والانحدار منها إلى داخل البلاد ، ولكنهم خابوا وارتدوا بفضل المقاومة المصرية الباسلة فى رشيد .

غير أن هاتين الحملتين الفرنسية والإنجليزية كانتا إيذاناً بقرب عمليات الانقضاض العام على الإمبراطورية العثمانية وتفكيكها بتحرير الأجزاء الأوروبية المسيحية من سلطانها ، وتشجيع حركاتها الاستقلالية ، وبالاستيلاء على بعض الأطراف الإسلامية النائية منها .

فى سنة ١٨٢٠ وما بعدها ربط الإنجليز إمارتى قطر والبحرين بمعاهدات تدرجوا فيها كعادتهم حتى ضيقوا على البحرين فى معاهدة سنة ١٨٦١ التى تقضى ألا تحل مشكلاتها إلا بعد عرضها على المعتمد البريطانى فى الخليج .

واستقلت اليونان سنة ١٨٢٩ واستقلت الصرب داخلياً فى نفس السنة ،

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ واستقلت ولايتا ملدافية وولاشية (رومانيا فيما بعد) داخلياً سنة ١٨٥٦ واستقلت الصرب استقلالاً تاماً سنة ١٨٧٨ ، واستقلت كريت سنة ١٨٩٦ ، واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ بعد أن شُقت قناة السويس وصار استيلاء غيرها عليها خطراً يهدد الهند .

وفرض الإنجليز على سلطان مسقط معاهدة فى سنة ١٨٩١ لا يستطيع هو وخلفاؤه بمقتضاها أن يتنازلوا عن أى جزء من أراضيها أو يؤجروه أو يرهنوه أو يسمحوا لأية دولة أخرى غير بريطانيا باحتلاله .

وفى سنة ١٨٩٢ عقدوا مع مشيخات الخليج الفارسى وإماراته كل على انفراد معاهدات التزمت فيها بأن لا تعقد معاهدة مع أية دولة أخرى غير بريطانيا وألا تأذن لوكيل أية دولة أخرى بالإقامة فى أراضيها إلا بعد رأى الحكومة البريطانية وألا تتنازل عن أى جزء من أراضيها ببيعه أو تأجيره أو هبته أو احتلاله لغير بريطانيا .

وفى سنة ١٨٩٩ عقدوا معاهدة مع الكويت كالمعاهدات السابقة مع شيوخ « ساحل القرصان » الذى سمى منذ ذلك الحين ساحل الصلح ، ثم ثبت مركزهم بالكويت نهائياً باعتراف الأتراك سنة ١٩٠١ مما جعل الوكالة السياسية التى أنشأوها فيها سنة ١٩١٤ تلعب دوراً خطيراً فى بث الدعاية لهم فى جنوب العراق وفى الاتصال بالقبائل العربية الجنوبية فى الحرب العالمية الأولى .

تم التطويق

وهكذا يتبين من الاستعراض السابق تطويق الإنجليز للبلاد العربية خاصة والإمبراطورية العثمانية عامة وتسللهم إليها من ذلك الباب الخلفي الخطير الخليج الفارسي، وعملهم الموصول على تحويل علاقاتهم التجارية الحرة هناك إلى معاهدات حماية وتحكم ومنع أية قوة أجنبية أخرى من عمل شيء يهدد مصالحهم وآمالهم الكبرى المرجوة التي رسموا للوصول إليها خططهم المحكمة حين تسنح أول فرصة .

وباستيلائهم على مصر قلب العالم العربي بالقوة والدس والخيانة والتفريق والرشوة وقعت كبرى كوارث العالم الإسلامي بالاستعمار كما قال المصلحان الثائران (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده) وتم تطويقه وانتقل مركز عمل الإنجليز الخطير إلى القاهرة ، فصارت المركز الأمامي الأكبر للنفوذ البريطاني ، وصار بيت « المعتمد السامي » فيها يعمل ويتصل ويثير ويستغل عناصر السخط بين العرب جميعاً على حركة التتريك والاضطهاد والتوجس والشك في العرب ، فسادت بين الترك والعرب حالة خطيرة .

خداع السراب

حتى إذا بدأت الحرب العالمية الأولى في أغسطس سنة ١٩١٤ كان حديث الاستطلاع أولا بين عبد الله بن الحسين واللورد كتشنر ، ثم

حديث التفاهم بين الشريف حسين والجنرال هنرى مكماهون المعتمد البريطانى فى القاهرة ١٩١٥ على مصير العرب إذا ما انحازوا إلى انجلترا وحلفائها وثاروا على الأتراك ، قد بدأ وسار فى مجراه إلى الاتفاق على إقامة مملكة عربية تضم أكثر الأجزاء العربية الآسيوية فى الإمبراطورية العثمانية .

تناقض العهود

ولما قضى الأمر وقوضت أركان ملك آل عثمان ، وابتدأت إنجلترا وحلفاؤها فى تصفية بقية (المسألة الشرقية) التى طال أمدها ، وفى توزيع تركة (الرجل المريض) بعد القضاء عليه ، ظهر للعرب أنهم قد خدعوا فى وعود إنجلترا وشرف كلمتها التى خلعوا من أجلها ولاءهم الدينى والسياسى لخليفتهم ودولته ، وأنهم قد أمنوا لذى خيانة وغدر ، وأنهم « أكلوا يوم أكل الثور الأبيض » التركى حينما أعانوا الأسد البريطانى على أكله ولم يدافعوا معه عن مصيره ومصيرهم ، وأن إنجلترا قد بلغ من غدرها أنها كانت تتفاوض مع فرنسا على مصير آخر للبلاد العربية فى اتفاق (سايكس — بيكو) سنة ١٩١٦ غير المصير المبين فى اتفاق (حسين — مكماهون) وأنها كانت تبذل الوعود للصهيونية بإنشاء وطن قومى لها فى فلسطين يقضى على الوحدة الإقليمية للقومية العربية ، ويهددها بالتمزيق واغتصاب بقية أوطانها لإسكان يهود العالم وتشريد العرب .

صليبية جديدة

وتبين للعرب كذلك أن وراء ظواهر تلك المعركة التى خدعوا واشتركوا فيها ضد دولة الخلافة الإسلامية، غزو اصليبياً جديداً ضد الإسلام وبلاده، بعد أن أذاع الجنرال (اللنبى) عند دخوله (القدس) منشورا أعلن فيه نهاية الحروب الصليبية وصرح الجنرال (غورو) قائد الاحتلال الفرنسى لسوريا وهو واضع قدمه على مقدمة قبر البطل الخالد (صلاح الدين الأيوبى) بدمشق قائلا (لقد عدنا يا صلاح الدين . . .)

ولم يكد الإنجليز والفرنسيون يشرعون فى تقسيم البلاد العربية إلى دويلات ليسهل حكمها وتخطيطها حسب مصالحهم الاستعمارية وإقامة نظم مصطنعة لإخضاعها، حتى أفاق العرب من سكرة خديعتهم وأيقنوا أنهم على أبواب دور خطير لا مفر لهم فيه من صراع دموى مع قوى الاستعمار والغدر. فهم لم يكونوا ليقبلوا أن يثوروا على بنى عثمان ليقعوا فى تلك الأحضان الشائكة القاسية للاستعمار الإنجليزى والفرنسى .

وكان شبوب الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ عاملا هاماً فى تهيئة نفوس العرب للتعجيل بالثورة على الإنجليز والفرنسيين ؛ إذ أن الثورة المصرية شبت من بنى عمومتهم الذين باوا أخلاق الإنجليز ومكايدهم وآثام استعمارهم مدة طويلة ، مما جعل العرب يدركون أن نصيبهم من الحكم

الاستعمارى لن يكون أحسن من نصيب المصريين ، وأن حكم المصريين على الاستعمار الإنجليزى ، وتمردهم عليه جدير أن يكون أمامهم ، حتى لا يطول شقاؤهم به « والعاقل من اتعظ بغيره » .

الثورة

وكان تخلى إنجلترا عن (فيصل بن الحسين) فى سورية ، وسماحها لفرنسا بمقتضى اتفاق سان ريمو فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٠ باحتلال سورية هو بدء الدخول فى عهد الثورات على الإنجليز والفرنسيين .

فقد خرجت بقايا جيش فيصل فى سوريا بقيادة البطل (يوسف العظمة) لملاقاة الجيش الفرنسى الزاحف بقيادة الجنرال (غورو) وظلوا يقاتلون فى موقعة (ميسلون) حتى سقط القائد العربى الخالد وأكثر رفاقه صرعى فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢١ ودخل الفرنسيون دمشق وحكموا سوريا .

وقد ألهب دخول الفرنسيين دمشق سخط العراقيين ، وقد كان يتجمع منذ انتهاء الحرب لعوامل كثيرة ، فثاروا وأعلن أئمة الدين الجهاد فى يوليو سنة ١٩٢٠ ولم تهدأ نفوسهم إلا بعد تنصيب فيصل الأول على عرش العراق ، وقد أخرجه الفرنسيون من سوريا ، وإقامة حكومة وطنية تتولى الإدارة فى العراق ، بعد أن كان الإنجليز يحكمونها حكماً مباشراً أولا ثم مقنعاً بالمستشارين .

وفى فلسطين ابتدأ عهد النضال حين أعلن حاكمها العسكرى (بولز)

عزم الحكومة الإنجليزية على قبول الانتداب على فلسطين، بما فيه من إجراءات لتنفيذ وعد (بلفور) للصهيونيين، ووقع أول اضطراب فيها بالمظاهرات الوطنية العنيفة التي انقلب إليها الاحتفال بموسم النبي موسى في القدس (٤ — ٨ أبريل سنة ١٩٢٠) إذ هجم العرب على اليهود واصطدموا بالبوليس، وقتل وجرح كثيرون من العرب واليهود.

وهكذا بدأ عهد من الثورة والاضطراب في البلاد العربية، وقد عاصر الثورات على الاستعمار في كل مكان؛ كثورة الهند وثورة أيرلندا وثورة تركيا الكمالية وثورة الريف المراكشي بقيادة البطل الكبير الأمير عبد الكريم الخطابي، والثورة المصرية، كما ذكر سابقا.

واضطر الاستعمار الإنجليزي أن يتقهقر تحت ضغط الشعوب العربية وإصرارها، وأن يغطي تقهقره بمفاوضات ومؤتمرات واتفاقات، حتى كانت معاهدته مع العراق في ١٩٣٠ ومع مصر في ١٩٣٦، وأن يضغط على فرنسا حتى يضطرها إلى الخروج من سورية ولبنان سنة ١٩٤٦ تحقيقاً لرغبة الرأي العالمي الممثل في مجلس الأمن حين رفع إليه أمر الاعتداء الفرنسي الغاشم على سورية بضرب أهالي دمشق وحمص وحماه بالنار، والفتك بالأبرياء، وتسليط نيران المدافع على دار المجلس النيابي بدمشق عام ١٩٤٥.

أجير للصهيونية

غير أن الاستعمار الإنجليزى فى فلسطين اختلف عنه فى أى مكان آخر ، وسيظل عهده فيها عار الأبد وسبة التاريخ . . . إذ كان يحكمها لا لنفسه بل للصهيونية العالمية ، فسخر قواه كلها لتهويدها والقضاء على العرب فيها والقيام بدور الستار للوكالة اليهودية ، يأتمر بأمرها وينفذ خططها فى جلب اليهود ، وامتلاك الأراضى ، وإقامة المستعمرات وتسليحها ، وتخدير العرب باللجان والوعود والمؤتمرات ، وقمع ثوراتهم الوحشية ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية فسمحوا لليهود بتكوين فرق مسلحة وجماعات عسكرية إرهابية ، حتى إذا ما اطمأنوا إلى أن اليهود يمكنهم الدفاع عن أنفسهم ويحتموا فى منظمات الأمم المتحدة ومساعدات الأمريكان ، دفعوا بالقضية إلى «الأمم المتحدة» ليغطوا انسحابهم منها ويخفوا آثار جرائمهم على العرب وعملوا هم وحلفاؤهم الأمريكان على حل العقدة بقطعها نصفين ، فصدر فى نوفمبر سنه ١٩٤٧ قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود تقسيما روعى فيه قطع الاتصال بين عرب المشرق وعرب المغرب ، وإشراف اليهود على ما يشتهون من المواقع والحدود والثغور .

وختم الإنجليز عهدهم فى فلسطين بموقف هو غاية فى اللؤم والنذالة مع العرب ؛ إذ أعلنوا أنهم سينهون انتدابهم عليها فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨

ليمكنوا اليهود من إعلان قيام دولتهم ، وليخلوا بينهم وبين العرب العزل من السلاح ، ينقضون عليهم ويفتكون بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم كما فعلوا فى مذبحة دير ياسين التى ذبحوا فيها ٢٥٠ نسمة ، وبقروا بطونهم ومثلوا بجثثهم فى ١٠ أبريل سنة (١٩٤٨) وبقرية (ناصر الدين) التى أحرقوها وقتلوا جميع سكانها من غير أن تحرك السلطات البريطانية ساكناً لنجدة أو لإقرار أمن فى بلدة كانت لا تزال مسئولة عنها ؛ مما اضطر دول الجامعة العربية أن تسرع إلى نجدة عرب فلسطين وإقرار الأمن فى المنطقة والاشتباك مع القوات الصهيونية فى المعارك المعروفة سنة ١٩٤٨ ثم إقرار اتفاقيات الهدنة سنة ١٩٤٩ بضغط من الأمم المتحدة .

الخطر الأكبر

وبقيام إسرائيل فى قلب بلاد العرب ، وبإعلان أهداف الصهيونية فى امتلاكها جميعاً ، وباقبال موجات المهاجرين اليهود من كل مكان إليها ، وبحشد قوى الصهيونية العالمية المادية والأدبية وأنصارها من الدول الكبرى ، وبفرض القيود على تسلح العرب بالتصريح الثلاثى الصادر من أمريكا وإنجلترا وفرنسا سنة ١٩٥٠ ليضمنوا لإسرائيل تفوقها العسكرى على جميع الدول العربية . . . بكل أولئك ، ابتدأ وجه خطير لاستعمار العالم العربى وإذلاله والقضاء عليه .

رادة الحياة

ولكن العالم العربى فيه من قوة الحيوية وعناصر المقاومة والدوام والاستمرار ، وقوى الدفع والنضال ، وإرادة الحياة لنفسه وللمثل العليا التى يؤمن بها ويحمل رسالتها للإنسانية كلها ، ما يدمر كل ما يصنع جبابرة هذا الزمان بعون الله ! .

فقد انبثقت من أغوار عوامل الفناء الذى تريده إسرائيل وأنصارها للعالم العربى ثورة حياة عارمة ، قلبت موازين الحساب الاستعمارى القديم والحديث ، وجددت روح الأمل والعمل والنضال فى الشعوب والحكومات العربية ، وأثبتت أنها تستمد من رصيد ضخم من إرادة الحياة وإرادة الحرية وإرادة الشرف ! على رغم عتو قوى العدوان والفناء والغدر التى تألبت عليها فلم تزدها إلا استعلاء وكبرياء وإيماناً بأن دورها الثانى فى المعركة الأبدية بين قوى الخير وقوى الشر قد آن أوانه ؛ فعليها أن تبدأ السير من جديد فى خط سيرها التاريخى الواضح نحو رسالتها الخالدة ، صابرة مصابرة .

إباء الفناء

أجل ، لقد انبثقت الثورة المصرية العربية الكبرى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ردا من الأقدار على أوهام قوى الرجعية والوحشية والعنصرية

التى تتمثل فى الاستعمار الصهيونى الوثنى الدموى الذى حسب وحسب أنصاره أن أوان رجعته إلى بلاد العملاق العربى قد آن . . حينما خيلت الأوهام للجميع أنه غدا مشلولا لن ينهض على أرضه الفسيحة العظيمة مرة أخرى ، لطول ما مزقته قوى الاستعمار ، وخدرته سموم الصهيونية ، وحجزته قوى التعويق والتثبيط عن حياة العلم والنضال والوحدة . . .

وقد مضت الثورة المصرية بالأمة العربية كلها واثبة بها من منطقة السدود والسموم ، منطلقة بها بأقصى سرعة إلى طريق الحرية والكرامة والعزة واسترداد الحقوق المسلوبة وتصحيح الأوضاع المقلوبة ، بتحقيق جلاء الإنجليز عن مصر ، وبعقد صفقات الأسلحة التى لولاها ما وقفت إسرائيل عند حد ، ولصارت سيدة المنطقة ، ولكان حلمها الكبير فى الوطن العربى الكبير قد تحقق أو كاد . . .

وبعقد الصداقات للعرب جميعاً مع دول كبرى ترحب بها وتمثل أكثر من ثلثى العالم ، ومع الشعوب المناضلة فى كل مكان لاسترداد حريتها والقضاء على قوى الاستعمار والبغى والجشع وبإقامة ركائز ودعائم للوحدة العربية الصحيحة بالاتفاقات الثنائية والثلاثية بين الدول العربية المتحررة .

وباليقظة والتأنى على الوقوع فى الفخاخ الاستعمارية الجديدة باسم (الدفاع المشترك) و (الأحلاف) الموجهة من معسكر معين تسيطر عليه قوى عدونا الأول الآن ، وهو الصهيونية التى لا تسمح للغرب بالتمكين لقيام القومية العربية وتسليح جيوشها تسليحاً يضمن لها التفوق على إسرائيل وملء « الفراغ » فى ديارها ويضمن لها حرية القيادة والحركة العسكرية

فى ساحتها حين تقوم الحرب الثالثة التى يقيمون الأحلاف والأحزمة استعداداً لها، بل على العكس ستكون قيادة جيوشها وتحركاتها بيد القيادة الكبرى الخاضعة للصهيونية، وهذه ستعمل طبعاً على إبادة الجيوش العربية بالقذف بها فى أتون معارك « القيامة » . . . التى ستكون فى الحرب الثالثة. ليخلو المجال الحيوى لإسرائيل ويقضى على العرب القضاء الماحق . . .

سر المنطق الملتوى

ومن عجب أن تجهل أو تتجاهل هذه البديهية لدى دعاة الثقة بمعسكرات أنصار الصهيونية الذين خلقوا إسرائيل وأقحموها على قلب بلاد العرب ! فلا يعقل أن يسمحوا بتقوية العرب وتسليح جيوشهم وتركها تملأ الفراغ المزعوم فى الشرق الأوسط وتحفظ «الوجود العربى» وتمكن العملاق من النهوض وسحق إسرائيل وأحلام الصهيونية . . .

ففيم إذاً كان خلق إسرائيل وجلب اليهود لو سمح للعرب بملء الفراغ بأنفسهم وجيوشهم؟! إنه فراغ محفوظ مدخر للصهيونية لتملأه بوجودها وجنودها . .

هذه هى الحلقة المفقودة فى سلسلة منطق الغرب ، يسقطها ولا يفصح عنها عمداً واعتماداً على (طيبة) بعض العرب أو خبثهم أو خوفهم من العفريت الشيوعى المزعوم . . .

وهذا هو المعنى الذى تضيق به صدور ساسة الغرب ولا تنطلق به ألسنتهم ، خشية السيطرة الصهيونية أو خدمة للعقيدة الدينية عن بعض المذاهب المسيحية .

وهذا هو السر فى الاعوجاج العجيب الطارئ على التفكير الأميركى والسياسة الأمريكية التى كانت أمل العالم ، وخاصة العرب ، قبل دخولها فى « جحر الضب الحرب » الذى دخله من قبلها الإنجليز بضغط الصهيونية كذلك .

وإلا . . . فليخبرونا بحق الشيطان . ! ما الذى يصرف عقولهم ويلوى أعناقهم فلا يدركوا ولا يروا أن القومية العربية ذات الملايين السبعين من وحدات البشر الأقوياء الأذكياء الإنسانيين غير جديرة بأن تملأ فراغ ساحتها التى خلقها الله نفسه ، جل وعلا ، لتملأه . . ؟ !

هذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول . .

ولكن ، لقد انكشف المستور وظهر المكتوم فى عملية تأميم القناة ، وفى المعركة الأخيرة ، بالاعتداء الثلاثى الذى لم يسبق له مثيل فيما لابسه من غدر ونذالة وحقد على مصر وعلى القومية العربية التى أثبتت وجودها الواقعى فى تلك المعركة . . . وبفلتات من ألسنة (إيدن وسلوين لويد وبينو ومولييه) الذين صرحوا بحربهم للقومية العربية وتحطيم ثورة مصر حرصاً على إسرائيل ومستقبلها ، وتحدياً لآمال العرب التى تجسمت فى شخص قائد زعيم شجاع جمع قلوبهم ومضى بهم وثباً وقفزاً على السدود والحواجز فى طريق عزهم وكرامتهم وسيادتهم على أرضهم ومقدرات بلادهم . . .

أجل ، لقد برح الخفاء وعرف العرب أن الاستعمار الإنجليزى خاصة ، لا يذكر لهم صداقة ولا تضحية قدموها ولا وفاء وقت الشدة ، ولا يضمر لهم إلا كل حقد يغطيه اضطراراً بنفاقه المعروف ، وأنه خاضع للصهيونية فى نظرته إليهم وحقده عليهم واحتقاره إياهم ، وأن مطامعه فى بلادهم تتجدد فى صور تختلف فى الشكل وحده .

البترول والصهيونية والإمبراطورية الثالثة

وكان المظنون أن يكون خروج الهند بقسميها من الحكم الاستعمارى الإنجليزى يستتبع طبعاً زوال سلطانهم على الطرق والمعابر التى كان قد استولى عليها لتأمين الوصول إلى الهند . . ولكن من سوء حظ العرب أنه قد نجم ناجم البترول الخطير فى ديارهم ، ونزل نازل الصهيونية فى قلبها ، وبقيت الإمبراطورية البريطانية الثالثة والأخيرة فى جوارها بإفريقيا . . . والبترول عصب الحياة الصناعية والقوة العسكرية ودم حضارة الآلات . . . والصهيونية مالكة بيوت التمويل والتصنيع والصحافة والتجارة ، مضافاً ذلك إلى سلطانها الروحى على بعض العقول والقلوب واستغلالها بعض الأساطير . . . والإمبراطورية الثالثة والأخيرة هى آخر آمال الإنجليز فى حياة الاستعمار والقرصنة ، وفقدها يعنى زوال المورد الأخير من موارد امتصاص دم الشعوب وعرقها ورزقها ، والقومية العربية هى أعظم ما يهددها ، فصارت المعركة

الآن بين الاستعمار الإنجليزى والصهيونى ، والقومية العربية تتركز فى هذه المجالات ، وتحتدم وتشتد فى صراع رهيب ؛ لعلم كل من أطراف النزاع أنها معركة حياة أو موت بالنسبة له ؛ فهو يبذل لها كل طاقاته الأدبية والمادية . . .

والمأمول من رب الحق ، وقوى الرأى العالمى ، وطلائع التقدم والسلام ، أن تحارب فى صف القومية العربية ، حتى تنتصر وتنهض بأداء رسالتها فى خدمة السلام والحضارة والتعاون الإنسانى .

obeikandl.com

القوميه العربية فى الميزان

بقلم

عبد القادر حاتم

للاستعمار فى منطقة الشرق العربى مصالح متعددة . . مصالح اقتصادية ، ومصالح سياسية ، ومصالح استراتيجية ، ومسألة السيطرة على هذه المنطقة ليست مسألة حيوية فحسب بل إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة للاستعمار ، وليست هناك مغالاة فى هذا القول إذ أن العالم شاهد نتائج غلق قناة السويس وحدها على كبرى الدول الاستعمارية : بريطانيا وفرنسا . . إذ أنهما أفلستا اقتصادياً ، وتوقفت مصانعهما ، وغدت عاصمتا بلادهما وأهم المدن بها وكأنها مهجورة بعد أن تعطلت سياراتها ، وكاد البرد يقضى على أهلهما . .

إذن فلا بد للاستعمار من أن يخلق الوسائل المشروعة — وغير المشروعة — للسيطرة على هذه المنطقة ، وتحطيم شخصيتها المعنوية . .

ولكن . . هل نجحت خطط الاستعمار ؟

لقد حاول شتى الطرق . . حاول تقسيم هذه الدول سياسياً ، وإشاعة الفرقة بينها ، ثم إشاعة الفرقة بين كل بلد على حدة . . فزادهم ذلك وحدة .

وحاول تحويل أبناء هذه المنطقة عن ثقافتهم القومية وفرض ثقافات أجنبية عليها ، بكل ما تحمله هذه الثقافات من عقائد . .

وحاول أن يخلق لنفسه جيلا من أبناء هذه المنطقة يتشربون ثقافته حتى يتحولوا عن مصالح بلادهم . . فكان ذلك وبالا عليهم . . وقامت الثورات ضدهم فى كل مكان . .

وحاول إضعاف هذه المنطقة عسكرياً وجعلها دائماً تحت سيطرته . .

وحاول تحطيم هذه الدول صناعياً ، وإيهامها أنها ليست بلادا صناعية حتى تظل دائماً سوقاً لصناعته ومورداً يستنزف منه المال .

ثم كلل هذه المحاولات جميعاً بمحاولة خلق دولة وسط هذه المنطقة من عصابات صهيونية ، وبعض المشردين من هنا ومن هناك ، وظل الاستعمار ينفخ فى هذه الدويلة الناشئة لكى يبعث فيها الحياة .

لقد ظن أنه إذا سمى عصاباته بدولة فسيقضى على القومية العربية نهائياً ، وأنه بذلك يكون قد وضع خنجراً فى ظهر العرب ، حتى إنه كلما سولت لهم أنفسهم التطاول على سلطانه طعنهم فى ظهورهم ، وشل حركتهم ، وبذلك يجعلهم تحت تهديد دائم وخوف مستمر . .

ولكن هل جازت حيل الاستعمار ؟ وهل أفلحت خططه ؟ أما عن فلسطين ، فبالرغم من احتلال أرضها ، ومشاكل إسرائيل المالية ، ومشاكل الهجرة وتوفير الطعام والعمل ، ومشاكل الجنسية والاضطهاد العنصرى ، والتفرقة العنصرية ، وبالرغم من جرائمها واعتداءاتها على المواطنين العرب ، فلا تستطيع أن تحقق الهدف السياسى الذى قامت من

أجله ، ألا وهو تحطيم القومية العربية . .

وبالرغم من كل المساعدات التى كان يكيلها الاستعمار لإسرائيل بغير حساب ، وبالرغم من الأسلحة التى كانت تتدفق عليها ، وتشجيعها على العدوان ، لم يزد الاستعمار العرب إلا وحدة وقوة . .

لقد ثارت ثائرة الاستعمار لهذا الفشل الذريع ، إن القومية العربية روح جارفة ، وعاطفة تختلج فى قلب كل عربى ، من المحيط الأطلسى غرباً إلى الخليج العربى شرقاً .. لقد أراد أن يحطمها وراح ينسج الخطط مع ربيبته إسرائيل ، وحدد موعداً للقضاء على القومية العربية يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، فالكل يعلم أهداف هذه الحرب وأنها كانت موجهة أولا وقبل كل شىء إلى القومية العربية التى أقضت مضاجعه ، وقضت على الأعم الأغلب من النفوذ الاستعمارى فى منطقة الشرق الأوسط . .

لقد أصبحت سياسة هذه الدول العربية ترسم فى عواصمها ، معبّرة عن آمال شعوبها ومتجاوبة مع إيمانهم بالحرية والعدل والسلام العالمى ، ولا ترسم فى منزل المندوب السامى أو سفراء دول الاستعمار . .

وأصبح المحرك وراء هذه السياسة هو رغبة الشعوب وآرائهم ، مستمدين هذه الرغبات من عروبتهم وقوميتهم ووطنيتهم الأصيلة . أصبحوا يترجمون أفكارهم بالأعمال ، الأعمال السريعة الحازمة فى سبيل أمتهم العربية ونصرتها وإعلاء شأنها . . وتبلورت سياسة هذه الدول وأصبحت لها شخصية مستقلة لا غربية ولا شرقية ، تنادى باستقلال جميع الدول ، وعملت على تصفية الاستعمار .

وقد كانت الثورة المصرية كالبعث الجديد ، والأمل الذى دب فى قلوب العرب . . الأمل فى الخلاص والتحرر والقضاء على الفساد أيا كان مصدره ، والقدرة على الوقوف فى وجه المؤامرات والإيمان بحق العرب . .

وبهذه الروح الجديدة أثبتت القومية العربية وجودها فى المؤتمرات الدولية ، وأصبح لها كيان ودور تلعبه ، وفى باندونج ظهرت هذه القومية ، وكانت من أهم الدول الآسيوية والإفريقية فى المؤتمر .

وبهذه السياسة جنبت القومية العربية العالم ويلات حرب عالمية ثالثة طاحنة فى خلال العدوان الثلاثى الغادر على مصر .

وبهذه السياسة لم ندع للكتل المتنافسة مجالا لوضع أقدامها فى هذا المحيط وسيطرتها على الشرق الأوسط ، وهذا هو الفارق بين سياسة الحياد الإيجابى وبين الارتباط بالأحلاف كحلف بغداد مثلا ، فقد صرح مستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية أخيراً بأن دول هذا الحلف بعد أن وجدت فى بريطانيا حليفاً غير قوى فزعت إلى أمريكا للتدخل السريع فى الشرق الأوسط . ولو أن هذه الدول الأربع قد سلكت مسلك الحياد الإيجابى لما تولاها هذا الفزع ولما طلبت هذا التدخل السافر الصريح .

إن القومية العربية اليوم قد أصبحت قوة فعالة فى المحيط الدولى تساندها الدول المحبة للسلام ، والشعوب الحرة فى العالم أجمع ، وهى قوة بذاتها لأن تحت يدها إمكانيات ضخمة ، وتربض فى موقع استراتيجى خطير .

والقومية العربية قوة بعد أن تقدمت إلى طريق الاتحاد الفيدرالى

وأصبح الدفاع عن هذه المنطقة منبثقاً من نفس هذه المنطقة دون أن تطلب حماية من أحد لأنها قادرة على الدفاع عن نفسها ، ودون أن تقحم نفسها فى أحلاف عسكرية مع أحد حتى لا ترتبط بكتلة من الكتل ، بل هى تؤمن بالحياد الإيجابى .

لقد أصبحت إرادة الشعوب ممثلة فى سياسة حكومات الدول العربية .

لقد انتهى الوهم القديم من أن دول هذه المنطقة لا يمكن أن تتحرر من سيطرة الاقتصاد الاستعمارى ، وأنها لا يمكن أن ترسم لنفسها مستقبلها ، انتهى هذا الوهم يوم أن تحررت هذه الدول من مخاوفها واستعادت ثقتها بنفسها . .

وكان على الدول العربية أن تتحرر من الاستعمار تماماً ، وأن ترفض الاستقلال الناقص لأنه أخطر عليها من الاستعمار نفسه . .

والاستقلال الناقص هو قبول أنصاف الحلول ، والسماح للاستعمار وأعوانه بالتغلغل فى صفوف الشعب ، فيكون نشاطه كالسرطان فى دماء القاعدة الشعبية ، يبث فيها روح الرجعية والهزيمة . .

وهناك صلة وثيقة بين قيام الثورة المصرية ، والقومية العربية الخالصة . .

فالأمانى المشتركة التى تملأ أفق كل عربى وتسيطر على إحساسه ، والأهداف واحدة ، والوعى العربى الذى بزغ فجره ، والتحرر من السيطرة الأجنبية فى كل ناحيـــة من نواحى السياسة والاجتماع والاقتصاد كانت من الدوافع التى أشعلت الثورة فى قلوب أبنـــاء مصر .

لقد بدأت اليوم مصر وسوريا تقيم قواعد هذا الاتحاد ، وتنير الطريق السوى أمام الدول العربية الأخرى .

وقد وجد الاستعمار فى العصابات الإسرائيلية مخلب القط فلما أن ضعف أمام الجمرات العربية المتوهجة وارتعدت قدمه ، وكاد النمر يمزق أوصاله هبّ الاستعمار ليدفع عنه ، وقد أسفر النقاب عن وجهه .

وبخطة مصر البارعة فوتت على الاستعمار ما يبغى فحفظت عليها جيشها والجيوش العربية الأخرى .

وقد بدت براعة هذه الخطة فى انكشاف أمر المؤامرة على استقلال سوريا من جانب الاستعمار والمستعمرين .

إن هؤلاء المتآمرين كانوا يودون أن يضطرب حبل الأمور فى البلاد العربية ثم يتدخلون ويعيدون للاستعمار نفوذه الأول الذى كان .

ولكن خاب ظنهم ! فالقومية العربية أصبحت أقوى وأمنع من أن تقتحم وأن ينال منها أدنى منال .

إن أهم سمة تتسم بها القومية العربية اليوم أنها صمدت صموداً رائعاً لمؤامرات الاستعماريين فى الشرق الأوسط .

وأنها لم تأبه بكل ألوان الضغط والتهديد .

إنها رسمت لنفسها طريقاً ، وهى تسير فى هذا الطريق دون تردد أو فزع .

هذا الطريق هو طريق الحياد الإيجابى .

وبدأت اليوم المحادثات الجدية لترجمة العواطف والأحاسيس إلى حقائق .

ولا شك أن الدول العربية الأخرى أخذت تفكر تفكيراً جدياً فى هذا الاتحاد .

لقد علمت اليوم هذه الدول على القشور ونفذت إلى اللباب .

إنها رأت كيانها لن يدعم إلا بهذا الاتحاد الوثيق .

وقد أثبت التاريخ أن هذا الاتحاد إذا وجد كان له خطره وشأنه فى مستقبل هذا الشرق .

هذا الاتحاد فى طريقه إلى التكوين إن عاجلا أو آجلا .

وبهذه المناسبة نذكر أن الشعوب العربية بأسرها تؤيد الاتحاد كل التأييد وأنها راغبة فيه كل الرغبة ، وأنه ما من عربى يؤمن بعروبته إلا ويتشى عند ما يسمع بالتقدم السريع نحو هذا الهدف المرتجى .

ونود أن نذكر فى هذا الصدد أن القومية العربية إنما يدعمها ماض عريض ، ومجد مؤثل ، وأن العرب يعيشون فى أشرف بقاع الأرض ، مهد الحضارات العريقة ، والأديان السماوية ، والتقاليد الطاهرة الكريمة ، والآداب الخالدة . .

فجدير بهم اليوم أن يفخروا بقوميتهم ، وأن يتعصبوا لها ، وخليق بهم أن يرفعوا رؤوسهم عزة وكرامة . .

أما استقلالهم الذى ظفروا به بعد كفاح طويل فلن يتخلوا عنه أبداً ، ومن يظن أنهم لن يواصلوا الكفاح فهو واهم ، إنهم سيدافعون عن كرامتهم وحريتهم بدمائهم كما فعلوا دائماً .. لن يتهاونوا قط ، وسيظلون متمسكين بسيادتهم وحقهم وأهدافهم ومثلهم الرفيعة العليا . .

القومية العربية وإسرائيل

بقلم

أنور الجمل

كان من نتيجة الاتفاقات الدولية التى عقدت بعد الحرب العالمية الأولى ، أن انفردت إنجلترا وفرنسا بمناطق النفوذ فى العالم وفى الشرق الأوسط بالذات ، وتمثل هذا الانفراد فى الانتداب الذى فرض على القطاع العربى . ولم يكن نظام الانتداب فى الواقع إلا نوعاً من أنواع الاستعمار المقنع وصورة جديدة من صور الاستغلال تفتقت عنه أذهان المستعمرين .

وحرص ساسة الاستعمار على أن يوفقوا بين ما نادوا به طوال الحرب من حرص على حرية الشعوب وحقهم فى تقرير مصيرهم وبين ما يهدفون إليه من صيانة لمصالحهم واستغلال لأرزاق الأمم الصغيرة وهو فى الحقيقة يحفظ للدول المنتدبة — وهى نفسها الدول الاستعمارية الكبرى — نفوذها وسيطرتها ووضع يدها على أرزاق أهل المنطقة ، ومقدراتهم . وذهبت صيحاتهم طوال فترة الحرب عن الديموقراطية والحرية وصيانة السلام أدراج الرياح .

لذلك لم يكن غريباً أن استنكرت الشعوب العربية نظام الانتداب واعتبرته اعتداء على استقلالها وسيادتها . خاصة وأن الوعى القومى كان قد نما نمواً كبيراً فى مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وغدت شعوبه تعارض بل لا تطيق أى نوع من أنواع الاستعمار سواء جاء هذا الاستعمار سافراً أو مقنعاً أو انتدابياً .

واحتدم النزاع — بفضل هذا الوعى المطرد — بين شعوب المنطقة وبين قوى الاستعمار من أجل حريتهم وسيادتهم ، بحيث يمكن القول أن الفترة التى انقضت بين الحرب العالمية الأولى والثانية كانت فترة نضال مرير بين هاتين القوتين . ويستطيع الباحث أن يقسم هذه الفترة قسمين ، فقد اتسم كل قسم منهما بسمات معينة .

أما الأول ، فقد استقر فيه النفوذ الأجنبى بسبب استقرار السياسة الدولية ، اللهم إلا بعض التوتر الذى كان ينبعث بين الفينة والأخرى بسبب تأجج الشعور القومى أحياناً وما كان يحدثه من قلق للدول الاستعمارية .

وأما الثانى : فقد ساد فيه الاستقرار بعض الشىء فى السنوات الأولى منه على أثر اهتمام دول الاستعمار بتسوية مشاكلها مع الدول المغلوبة على أمرها تحت يقظة شعوبها وإصرارها على استرداد حريتها ولكنه غص بمشاكل فى السنوات الأخيرة بسبب التوتر الدولى الأخير .

وقد تمثل هذا الاستقرار الذى تحدثنا عنه فى النصف الأول من هذه الفترة بتسوية بعض المشاكل بإبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر

ومعاهدة سنة ١٩٣٠ مع العراق ومعاهدة سنة ١٩٢٨ مع شرق الأردن . وبقيت مشكلة فلسطين معلقة بدون حل .

على أن تاريخ فلسطين الحديث قد ارتبط ارتباطاً خطيراً بوعد بلفور بالوطن القومى لليهود . هذا الوعد الذى لم ترد به دول الاستعمار إلا سيطرة كاملة على فلسطين وتخلصاً من نظام الانتداب فيها ، إذ رأت فيه بريطانيا حائلا دون سيطرتها على الخط الأمامى لتأمين قناة السويس من أى خطر يقع عليها من الشمال .

وقد كان كتشنر أول من أشار على دولته بأهمية فلسطين وخطورة موقعها وذلك سنة ١٩١٤ الأمر الذى حدا به إلى أن يقترح على حكومته ضم فلسطين إلى منطقة النفوذ البريطانى ، بحيث حرصت بريطانيا فى اتفاق (سكس — بيكو) السرى على الأخذ بنصيحة رجل الإمبراطورية العجوز وضمت فلسطين إلى منطقة نفوذها .

على ضوء هذه الأهمية لفلسطين بالنسبة للإمبراطورية البريطانية المنهارة — كما أدركها كتشنر — تتضح الأسباب التى حدت بالاستعمار إلى خلق إسرائيل فى موضع القلب من أمتنا العربية .

وعند ما أيقن الاستعمار « بعد الحرب الأخيرة » أن حركة التحرير فى ازدياد مطرد وأن انتصارات الشعوب بثوراتها العارمة تكاد تجرفه فى طريقها ، وأن غضبات الشعوب تكاد تلاحقه فى كل مكان . وعندما أحس أن أساليب الاستعمار البالية العفنة بما فيها من قهر وقمع وتنكيل ، وعسكرة فى المدن ، واحتلال للمرافق ، وتدخل فى شئون الحكم لتنصيب

أعوانه وأذنابه حكاماً على الناس قد ولّى زمانه وانقضى .

عند ذلك أيقن أن الأمر قد خرج من يده وأنه أصبح مكرهاً على الرحيل من الوطن العربي كله . فبدأ يفكر في الاحتفاظ باستغلاله واحتلاله فوضع خطة جديدة تهدف إلى الإبقاء على استعماره ، هذه الخطة الجديدة تقوم على نقطتين أساسيتين :

أولهما : خلق إسرائيل لاتخاذها أداة للضغط على الدول العربية لتنفيذ الأغراض الاستعمارية في المنطقة ، ولعرقلة تقدم شعوب المنطقة نحو التحرر الوطني ، ومن ثم القضاء على القومية العربية الوليدة .

والثانية : ربط الدول العربية بحلف أو ميثاق دفاعي مشترك ليستطيع الاستعمار السيطرة عليها مجتمعة في شتى نواحي حياتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

ولعل من سخرية القدر أن يكون هذان العاملان اللذان تفتقت عنهما قريحة دول الاستعمار للاحتفاظ بالمنطقة في دائرة نفوذها هما نفس العاملين اللذين أطاحا بما بقي لها من سيطرة واستغلال على مقدرات هذه البلاد .

فقد كان هذان العاملان من أهم الأسباب التي ساعدت على اشتعال القومية العربية ، وعلى تغذية الروح الوطنية في شعوب المنطقة . فتأييد بريطانيا لليهود خلق عداء مريراً لها في قلوب شعوب المنطقة بدأت تجني عواقبه هذه الأيام . إذ ليس من شك في أن خيانة بريطانيا للعرب وتنكرها لحقوقهم ، وغدرها بهم ، ومحاربتها الدائبة لأمانيهم الوطنية ، ومقاومتها

لقوميتهم النامية ، قد قضى قضاء تاماً على علاقاتها معهم ، وعجل بالقضاء على نفوذها ومصالحها فى المنطقة العربية كلها ، وباتت هذه المصالح ، وهذا النفوذ يحتضر حتى جاءت حملة القرصنة الأخيرة على مصر التى تزعمها إيدن فأطاحت بكل ما بقى لها من نفوذ وسلطان .

فرغم العقبات التى قامت فى الماضى للحيلولة دون انبعاث القومية العربية بسبب بقايا الانقطاع الذى كان قائماً ، وانعدام الزعامة التى تحمل روح الشعور بالمصلحة العامة ، وقلة الشعور بالمسئولية الجماعية بسبب عوامل القهر والقمع التى تتخذ ضد الرأى العام فى كل مناسبة . نقول برغم كل هذه الحواجز والعقبات فقد كان خلق إسرائيل وتحالف الاستعمار معها ضد الشعوب العربية أكبر حافز لهذه القومية على الظهور والانطلاق .

لم يكن إذاً (وعد بلفور) ثمناً للجهود المبالغ فيها التى بذلها اليهود فى الولايات المتحدة لتدخل الحرب إلى جانب الحلفاء . فإن هذه الجهود لم تجذب إليها انتباه المؤرخين الذين تناولوا أسباب هذا التدخل .

كما أن المصالح الحقيقية للولايات المتحدة لم تكن خاضعة للصهيونية العالمية فى ذلك الوقت بدليل ما كان من معارضة كثير من اليهود فى إنجلترا وأمريكا لفكرة الوطن القومى اليهودى قبل إعلان وعد بلفور خشية أن يفقدهم ما لهم من امتيازات وحقوق ومصالح فى البلاد التى يقيمون فيها .

كما لم يكن وعد بلفور أيضاً ثمناً لمساهمة اليهود فى الحرب بأموالهم

كما توارد فى بعض المصادر التاريخية لسبب بسيط هو أن أكبر عدد منهم كانوا من اليهود المعارضين لفكرة الوطن القومى .

وإنما الذى حمل إنجلترا على إصدار وعد بلفور هو ما رسمته لنفسها من الانفراد بالسيطرة على فلسطين بإنشاء قاعدة استعمارية فيها لتحكم المنطقة العربية كلها من وراء هذه الدولة المصطنعة كما تضمن بريطانيا بقيام إسرائيل استمرار نفوذها فى البلاد العربية بعد أن أحست بنمو الوعى القومى كما أسلفنا .

ثم إن فى قيام الوطن القومى لليهود فى فلسطين ما يشغل العرب عن قضاياهم الوطنية أو التفرغ لمشاكلهم الداخلية أو الخارجية .

لذلك يمكن القول أن هذه العوامل المفتعلة التى قيلت فى إنشاء وطنهم القومى والتى عمل الصهيونيون على نشرها والترويج لها بين الناس لم تكن إلا من قبيل الدعاية لأنفسهم وتغطية موقف الدول الاستعمارية منهم والتحيز لهم بهذا الشكل المفضوح .

وتوالت قصة خلق إسرائيل بعد صدور وعد بلفور بتخلى بريطانيا عن انتدابها فجأة ودون سابق إنذار بعد أن اتفقت مع إسرائيل على احتلال مدن فلسطين ومساعدتها وتيسير سبل هذا الاحتلال برغم الاشتباكات الوهمية التى حدثت قبل ذلك بين القوات البريطانية المحتلة وبين العصابات الصهيونية . ثم توالت فصول هذه التمثيلية من مساعدة العصابات الصهيونية بمدها بالسلاح دون العرب ، وبذل الوعود الكاذبة للعرب لتضليلهم والزج بهم فى حرب يعلمون مقدماً نتيجتها . والتدخل

لوقف الحرب بعد أن طرقت الجيوش العربية أبواب تل أبيب . ثم ما كان من أمر إيقاف الحرب مرة ثانية لمد إسرائيل بالسلاح . وقامت إسرائيل . ثم أعقب ذلك ألوان مختلفة من الضغط السياسى والاقتصادى والذى تمثل فى صور شتى . فلا سلاح للعرب حتى لا ترجح كفتهم على كفة إسرائيل إلا إذا أرادوه مشروطاً بشروط أقل ما يقال فيها أنها احتكار واستغلال واستعمار ، ولا مساعدات اقتصادية للبلاد العربية ، بل حصار اقتصادى رهيب إلا إذا هادنوا الدولة الطاغية وعقدوا صلحاً معها .

كل هذا يتخذ ضد العرب ، وإسرائيل سادرة فى عدوانها تحت سمع دول الاستعمار وبصرها والشكاوى تتلاحق كل وقت ضد إسرائيل ولا تجد لها سميعاً ولا مجيباً .

ثم إن الأسلحة تنهال على إسرائيل دون قيد أو شرط وتجمع الأموال لها فى كل مناسبة وبغير حساب .

إلا أن الشعوب العربية لم تستسلم ومضت فى بناء دفاعها العربى الخالص .

فعقدت الاتفاقات العربية الثنائية ، ووحدت القيادات العسكرية ضد عدوان إسرائيل وعقدت صفقات الأسلحة ، وفرقت الحصار الاقتصادى المضروب ، وأعادت النظر فى جميع الاتفاقيات الاستعمارية السابقة ، كاتفاقيات مرور البترول فى سوريا ولبنان والاتفاقات التجارية بصفة عامة .

وواصلت هذه السياسة زحفها فطرد جلوب وتحرر شعب الأردن

من الالتزامات التى كبلته بها بريطانيا .

وأحس العرب ألا سبيل أمامهم إلا أن يتكتلوا ويوحدوا جهدهم ليدرأوا هذا الخطر الاستعمارى الذى يتربص بهم . ذلك الخطر الذى وضح تماماً فى الحرب الفلسطينية الأخيرة وما أعقبها من مناورات استعمارية .

وغدا درعنا الواقى الوحيد أمام هذا الخطر هو اتحادنا وأدركنا أنه من السهل الاعتداء على بلد عربى منعزل لا يربطه بالآخرين أى رباط لأن العدوان على هذا البلد لن تتجاوب أصداؤه فى المنطقة التى يعيش فيها . أما إذا كانت بلاد المنطقة ترتبط ارتباطاً قوياً فإن العدوان على أى منها لا بد وأن يؤثر على البلاد الأخرى .

وقد رأينا فى العدوان الثلاثى الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى كيف أن صداه قد تردد من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى واعتبر كل بلد عربى أن الاعتداء موجه إليه شخصياً . ذلك لأن العرب قد أدركوا أن مصر لم تكن هى المقصودة بالذات وإنما المقصود هو القضاء على القومية العربية النامية. لأن هذه القومية أصبحت خطراً يتهدد المصالح الاستعمارية فى المنطقة . وينذر بالقضاء التام على كل أثر من آثار النفوذ الأجنبى فى جميع البلاد العربية .

وأحس المستعمرون أن مقومات هذه القومية قد اكتملت فأصبح لها أدب خاص ولها منهج واضح تمام الوضوح ووضح أنها تستهدف خلق أمة تجمع بين جميع العرب من أطراف الخليج الفارسى إلى شاطئ المحيط

الأطلسى . الأمر الذى أطار صواب دول الاستعمار فأخذوا يضعون الخطط ويحيكون المؤامرات للقضاء على هذه الانتفاضة التى تتهددهم فكان الاعتداء الأخير على مصر وما صاحبه من مؤامرات فى سوريا .

وفى هذه المرة لم يستطع الاستعمار أن يخفى نواياه أو يتذرع بالمداورة أو أن يلجأ إلى المحاورة بل إنه تحالف مع إسرائيل عدوة العرب صراحة وأعلن إيدن بكل وضوح فى مجلس العموم البريطانى أن الاعتداء على مصر ليس هدفه قناة السويس فحسب بل إن هدفه الأكبر هو القضاء على القومية العربية التى يقودها الرئيس جمال عبد الناصر ويعمل على التمكين لها .

وكان صراعاً رهيباً بين القومية العربية وبين قوى الاستعمار امتحنت فيه القومية العربية امتحاناً مريراً ، وخرجت من هذا الامتحان مرفوعة الرأس وأثبتت للعالم أجمع أنها أصبحت حقيقة واقعة بفضل تضامن البلاد العربية كلها ووقوفها صفاً واحداً بجانب مصر .

وغدت القومية العربية قوة دولية جديدة لها وزنها بين الكتل المتصارعة حتى أن الإنجليز أنفسهم عند ما روعتهم نتائج مغامرة إيدن الحمقاء لم يستطيعوا إخفاء اعترافهم بأثر الوحدة العربية فى القضاء على مصالحهم . وما بقى لهم من نفوذ فى الشرق الأوسط كله . وسجلوا على إيدن حماقته إذ عرضهم للارتطام بتلك القوة الكبرى النامية التى أثبتت الأحداث أنها أمنع من أن ينال منها غاصب أو معتد مهما تكن قوته .

أما إسرائيل التى كانت تدعى أنها لا تطمع إلا فى أن تعيش وصوّر

لها خيالها السقيم يوماً أنها تسخر قوى الاستعمار لصالحها . فقد أثبتت المؤامرة الأخيرة المكشوفة أن الصهيونية والاستعمار حليفان لا يفترقان تجمع بينهما أساليب الغدر والخيانة . وأن إسرائيل قد أشهدت العالم أجمع على أنها هى أداة الاستعمار فى المنطقة بما لا يدع مجالا للشك .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

obeikandl.com